سلمان فياض

كلام للبيع

قصص قصيرة

الرامة ٢٠٠٣

إصدار : دار الهدى للطباعة والنشر / كريم ٢٠٠١

سلمان فراج

كلام للبيع

قصص قصيرة

الرامة

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

٢٠٠٣

إصدار: دار الهدى للطباعة والنشر/كريم 2001

عزالدين عثامنة/كفر قرع

هاتف: 06-6354222/6354114 * فاكس:06-6356470

متنقل: 050-206509

أحب الشعر... وانتظرت طويلا أكتب وأتهيب النشر إلى أن كف الشعر عن التسول الجباح في ميادين القول.

وها إني أنشر هذه القصص القصيرة اليوم بعد تهيب طويل آملا أني أسهم في المقاربة بين الجنسين من حيث احترام هيبة الأدب في معاشرته للغة مهما كان طموحه جامحا إلى المحاكاة والتخييل.

سليمان فراج

الرامة - إيلول/ ٢٠٠٣

أخيراً جاء مسعود

١

ساحة المبنى التجاري تعج بالناس، وأنا صرت من طول الممارسة أعرف مَن منهم سيكون زبونا ومن لن يكون، ومنذ لمحت عيناي هذين الشابين توقعت أنهما ليسا من هذا الصنف ولا من ذاك، شئ ما شدني لأن لا أدعهما يغيبان عن عيني رغم الزحام ورغم انشغالي الذي لا يتيح لي التوقف عن تسخير عيني ويدي وكل انتباهي للزبائن.

منذ أطلا كانا مختلفين، إنهما غريبان لاشك. لعلهما يدخلان المبنى لأول مرة... فلم ألمحهما من قبل، وأنا أميز الوجوه الجديدة بنظرة خاطفة على الرغم من كثرة الوافدين.

إنهما يمشيان متقاربين، وتبدو عليهما الدهشة والاهتمام وكثرة التلفت والتحديق فيما حولهما، لكن لا يبدو أن ذلك ناجم عن انبهار بعظمة المكان أو عدم الخبرة بفخامة المجمعات التجارية، فما دهاهما إذن؟ ! آه لقد لمحاني، إنهما يتوقفان عن المشي ويحدقان بي... يتهامسان... يتابعان السير ولا يكفان عن الالتفات إليّ...

ها هما يتهامسان . . . ينظران نحوي باهتمام . . . ألمح في نظراتهما ما يبعث بي الإحساس بأنهما مهتمان بي أو ربما بما أقوم به ، إنني لا أرتاح لهذا الاهتمام أبدا لأنه لا يشير إلى الرغبة في الشراء كما تعودت أن أتقراها في عيون الزبائن ، . . . ها هما يقتربان . . . وألمح في فضولهما ما يشبه العداء أو ربما يشبه المساءلة على نحو ما ، أشعر بنوع من الارتباك .

يا إلهي ! أين ذهب مسعود؟ ! صار لا يطيق البقاء هنا ، في البداية كان لا يفارقني .

يقترب أحد الزبائن ، يملؤني إحساس من الاطمئنان ، لأنشغل بتلبية حاجته قبل أن يصل فأنا أفهم ما يريده زبائني قبل أن يعلنوا عما يريدون .

-شالوم نوره ، بيته زعتر ببَكَشَا . . . ، يترقق الرغيف على ذراعي في لمح البصر ، أُلقيه على الصاج الغازي ، ينضج بسرعة ، أنزعه عن الصاج ، أطرحه على «الطبلية» الخشبية عن يميني ، أصب عليه قليلا من زيت الزيتون ، أدهن الزيت على الرغيف ، أرش قليلا من الزعتر وألف الرغيف وأرفعه للزبون .

- أهلا مار حايم ، بكشا ، تفضل . يأخذه ويعطيني الثمن ، يمضي ، أدس الثمن في كيس الغلة ، أطفئ الغاز .

أحس برهبة ما، لعل هذين الشابين يحومان هكذا من أجل الكيس، فربما انتبها إلى أن الغلة جيدة هذا اليوم، إذن سأضع الكيس تحت فخذي وسأريهما كيف تدافع المرأه حتى ولو كانت من مثل حالتي . . . !

آه أين أنت يا مسعود . . . ؟ يا » مسخوط « . . . ! أين تقلعت ؟ ! لا يحلو لك التسكع إلا بعدما يأخذ الزبائن حاجاتهم ويخلو المكان لمن هب ودب ؟ . . .

ها هما يعبران إلى الناحية الأخرى، لا يكفان عن الالتفات إلي . . . يتوقفان أمام دكان الأحذيه في نهاية الساحة، يتهامسان باهتمام زائد . أنا مقتنعة هذه المرة باني مثار تهامسها . . . الملعونان . على كل حال لن يغيبا عن عيني ولن يكون لهما ما يريدان .

القعدة على » الطراحة « أتعبت مفاصلي، وجمدت رجليّ الممدودتين، . . . لأحرك بدني إذن، بل لأقف، ها أنا أنتصب، أسوي هندامي وأراقبهما، كيس الغلة في يدي . . ، أه . . . حسنا أنهما يرتبكان . . . يدخلان الدكان . .

٢

تأخر «مسخوط» . . . ، يا لحظي معه ! . . . صار مثل خلق الله ، مثل أصحاب المصالح ، يترك محله متى يشاء ويعود متى يشاء ، وأنت « يا بنت النَّوَر» تحمّلي القرف ! كأني أنا المسؤولة وحدي . . . ، يعني خدّامة جنابه ! . . . والله يا عمي صار وتصور ! صحيح أنني لم أعد أخجل من «التفحيج» أمام الصاج ولا من العيون الزائغة طول الوقت . . . وصحيح أنني لم أعد أخشى البقاء وحدي فقد ألفت المكان والناس ، ولكنني حرمة والحرمة يقف إلى جنبها رجل . . «لو صورة» ، هكذا قالت لي أمي عندما خطبني ، و«ملعون الوالدين» لا يحس ولا يفهم ! . . . كم فهمته ولا يفهم ! . . . «بهيم» ! . . «لوح» ! . . . آه من حظي ! كم أنا معثرة . . . ! الله يسامحك يا أمي ! . . . كيف أقنعتني يومها ؟ ألم تلحظي أنه لا يحس ؟ أيكفي أنّ عنده بيت «طز» ! ورثه عن أمه ؟ ألم تلحظي أنه بطال ؟ كم جئتك «زعلانة» لأنه لا يعمل إلا بقدر «خبزنا كفافنا» ولا يهمه مستقبل الأولاد فأرجعتني اليه بحجة أن «السترة واجب» ؟ وهو لا يفهم . . . لا يفهم أن الحياة اليوم لم تعد كما كانت مجرد «كل واشرب» كما يقولون . . . وكبرت العائلة : أربع بنات وصبيّان لم نؤمّن لهم إلا «الأكل والشرب» ، والناس حولنا ، آه . . . صرت أخجل من الناس وصرت أحسدهم ، صرت لا أطيق نفسي بينهم ، والنساء على الأخص عندنا لسانهن طويل ، وأنا ما ذنبي ؟ . . . ما بيدي ؟ .

أشرتِ عليّ أن أصنع الخبز وأبيعه . . . ، ثم صرنا نبيعه بالزعتر للمتنزهين على الشارع العمومي خارج القرية، وتحمس مسعود، وتحمست معنا وتحسنت الأحوال . . . آه كم فرحت يا أمي عندما اشترى مسعود سيارة نحمّل عليها عدة الخبز ونبحث عن الأمكنة التي تجلب الزبائن على الشوارع البعيدة، . . . قالت لك أم حسين معرّضة :

- بنتك على الدروب، هذا غير مناسب، وفهمك كفاية . وقال أبو جودت :

- الطمع في الدين يا أم نورا، «تفحيج» النسوان على الشوارع أمر عظيم . وجئت إلينا في المساء وبكيت وسببت الناس لطول ألسنتهم وقهقه مسعود وسب الناس ثم سرعان ما غفا وهو قاعد وراح يشخّر كالثور .

تتقدم امرأة، تقترب مني :

- بيتا مدام . ولكنني أحس بالملل، لا رغبة لي بالمزيد، أنا لست «حمارة البيت» وحدي .

- خلاص بيتا اليوم، خلاص! . . . المسكينة تجفل، تهرول مسرعة، آه لو تعرف ما بي، لو تسألني لأحكي لها . . . ظنتني قاسية وهي لا تعلم أني أوهى من شالها الذي يتلوى على وقع خطواتها المتعثرة بسببي .

٣

المارة ينظرون إليّ باستغراب كأنما يتساءلون لماذا تقف هذا المرأة الغريبة هكذا؟ حتى الذين اعتادوا رؤيتي هنا ينظرون باستغراب . . . أين اختفى المسخوط؟ نسي أن له حرمه «تفحِّج» أمام الصاج وحدها بين خلق الله، وها أنا أقف لأريح مفاصلي فأبدو في عيونهم كالثور في الزَّفة . . . لأُسوِّ هندامي لعله يثير فضولهم، أمرر يدي على صدري.

- أي! . . . يا خيبتك يا حليلة ذياب ابن مرة ! كيف لم أنتبه! أزرار ثوبي محلولة! الزر الأول والثاني والثالث، ويلي . . ! صدري مكشوف! لولا «الشلحة» لكانت فضيحة بجلاجل . . آه منك يا «سبع الرجال»! . . . الشلحة أحمش منك . . . لو كنت هنا لنبهتني. كان اليوم زحمة وكنت اشتغل مثل «الفرنينة» فلم أنتبه لحالي . . . لم أنتبه! سامحني يا ربي! .

يقع كيس الغلة من يدي . . . أضم طرفي الثوب وأسحب الكيس بقدمي وأقرفص فوقه بين الحائط والصاج وأنتظر.

لقد تأخرت كثيراً يا ابن عمي تأخرت يا مسخوط . . . لأُجل نظري عله قادم . . . ، لا . . . لا أثر له، إذن سأركز انتباهي على جهة المدخل، ها أنا أنظر جهة المدخل . . . حركة الناس قليلة،

صارت قليلة، لن أزيح وجهي لعل الشيطانين يفهمان أنني أنتظر رَجُلي . . .

. . . أخيرا . . . آه . . كعادته ها هو يهلهل ببنطاله القصير حتى الركبتين وكرشه المنفوخ فوق ساقين رفيعتين معوجتين يكسوهما الشعر الأسود. إيه منك ومن قامتك! وتمشي مترنحاً بلا خجل؟

طبعاً بعد أن عبأت كرشك مثل كل يوم . . «أم علي تقلع وأبو علي يبلع» ماذا يهمك؟ على مهلك . . . على مهلك يا قضيب القصب!

- أي ! أي ! . . .

الشيطانان! يقتربان! . . . يمران أمامي. يتمتمان. أجحرهما . . . أحدهما يبصق بشدة إلى جهتي. عيناه تشتعلان غيظاً وتأنيباً. ينمل جلدي. أصرخ بثقة وحزم:

- عندي زوج أكبر من الفيل. انقلعا إلى جهنم يا . . . !

عجوزان في القطار

أطلت عربة المرطبات في القطار عبر مدخل عربتنا وصاح الفتى الذي يدفعها :

- مرطبات ! . . . كعك !

راحت العجوز السمينة البيضاء تنبش في كيس الشبك المعلق بزندها . أوقف الفتى العربة بإزائها واشترت منه قنينة ماء . تناولت العجوز الثانية مصاصتين . تابعت البيضاء يد جارتها بعينيها الزرقاوين من وراء عدستي نظارتها دون أن تحرك رأسها ثم حدقت في رقبة القنينة وهي تداعبها بصمت .

قبل أن تبتعد العربة تداركت العجوز البيضاء وطلبت من الفتى كأساً بلاستيكياً ، دفعت به وبالقنينة إلى يد جارتها وأخذت المصاصتين ، أصرت عليها أن تصب في الكأس وتشرب قبل أن تبدأ هي بالمص لأن في حلقها التهاباً مزمناً ، ورغم ادعاء الجارة بأنها ليست بحاجة للشرب فقد أذعنت للإلحاح وصبت قليلاً وشربت بشغف . قالت العجوز البيضاء وهي تنظر للخارج :

- الماء ضروري ومهم ، هل ادخرت ماء ؟ يقولون : علينا أن نخزن الماء إذا وقعت الحرب .

- اشتريت دزينتين حتى الآن .

- لا يكفي ! . . . خزني أكثر . . . الماء مهم . . . مهم جداً . . . أنظري ! المنطقة مهملة في الخارج ، لا نرى إلا أكوام الخردة من الشباك . . متى يزيلون هذه الأكوام؟ . . . قلبي ينقبض كلما مررنا من هنا

- إذا أرجعوا المستوطنين في «المناطق» يبنون هنا مئات العمارات .

- لن يرجعوا !

- تستمر الأحوال السيئة إذن !

- إسمعي ! تعرفين أنني تعلمت قليلاً من علم التاريخ في شبابي ، كنت معلمة قبل أن أتقاعد أليس كذلك؟ لن يكون رجوع .

- والأحوال؟ ! ستستمر !

- عندما خرج شعب إسرائيل من مصر توّهَهُم الله أربعين عاماً في سيناء .

- ما العبارة؟

- إلى أن زالت العبودية من نفوسهم !

- أعرف هذا ، ماذا تقصدين؟

- لسنا عبيدا بعد! .

- هم إذن؟

صفر القطار إيذانا باقتراب المحطة وخفف من سرعته. حملت العجوز البيضاء أشياءها المكومة في حضنها ووقفت متجهة نحو مدخل العربة، فترنحت وهوت نحوي فتلقفتها بذراعي وساندتُ أنحاءها المترهلة وقربتها إلى جدار المدخل، كانت صديقتها النحيلة قد وصلت إليها مهمومة تؤنبها على تسرعها واستندت إلى جانبها. قالت العجوز البيضاء:

- تمسكي جيدا يا عزيزتي. . . تمسكي جيدا.

زغروطة

١

لما هدهد صوت الآذان صمت الحادي وتفرق «الصف»، وكان في قمة الحماس. بعض الرجال انسحبوا مهتمين للصلاة، وبعضهم تلكأ، ثم بفوضى وتكاسل لجأوا إلى المقاعد الفارغة وارتموا فوقها، وكذلك فعل الحادي وأشعل سيجارة ووضع وجهه فوق كتف زميله وراح يقول له شيئا ما. أما الحاشية فظل رافعاً كلتا يديه إلى أن فطن أنه بالغ في الأمر فأنزلهما ومسح وجهه وهو يصطنع الضحك، وانسل وحيداً مستغفراً بإشارات مشوشة إلى حيث القهوة السادة.

٢

كانت أم العريس قد هيأت نفسها عند مكبر الصوت وبيدها السماعة الفائضة لتلعلع بزغروطة غنتها جدتها أم غانم في عرس غانم والدها وما زالت النساء في القرية يتمثلنها لبراعتها وبراعة صوتها في ذلك الزمن الذي لم تكن فيه مكبرات الصوت.

تمرنت طويلا على هذه الزغروطة وخمنت بينها وبين نفسها أنها

ستستعيد مجد جدتها من جديد . . . وأكثر ، فمكبر الصوت سيحمل صوتها الذي لا يخلف صوت جدتها سواه - كما تؤكد العجائز - إلى كل أنحاء القرية ، وستقول النسوة : الله يرحمك يا أم غانم ويرحم أيام زمان ، وسوف يقلن : من خلف ما مات .

التفتت إلى المشجعات خلفها تطلب منهن المدد فلمحتهن يتضاحكن ، فأسقط في يدها ، وتطلعت نحو زوجها محتارة فأشار لها من بعيد بأن لا تفعل ، فتركت السماعة وتراجعت محبطة تهرول لتندس بين النسوة .

٣

علا هرج النسوة وضحكهن وغمرا أرجاء الصمت ، وتراكض الأولاد في كل مكان . تأفف أبو العز وهمس للجالس الى جواره :

- خربت السهرة ! فرد عليه بحذر :

- العادة . . . ! عندكم يحترمون العادات .

فهم أبو العز أنه يكلم رجلاً غريباً ، فأهل به وصاح بحامل السادة مشيراً إلى الضيف ، فجاء مسرعاً وراح يصب لكل من بالجوار .

٤

عاد المصلون إلى الساحة وانتظم الصف من جديد على صوت الحادي، ودعا أبو العز جاره للمشاركة فاعتذر لأنه سيغادر لواجب آخر هذه الليلة فراح هو يبحث عن الحاشية.

أما أم العريس فقامت بجولة بين نساء «الأهلية» القائمات على الخدمة لتحضهن بالكلمة الحلوة وتشكر جميلهن. قالت إحداهن:

- نادي علينا لما يجيء وقت الزغروطة لنتفرج يا عمتي، لا تحرمينا من زغروطة جدتي. أحست بفرح فتضاحكت وأسرعت إلى المغسلة وشطفت يديها بالصابون «اللكس» وصبت عليهما من زجاجة العطر التي في جيبها ثم دارت على النسوة تعاود الترحيب بهن قبل أن تعاود التقدم إلى السماعة الفائضة.

٥

تهامست النسوة:

- «معدلة» أم العريس! . . . ريحها يفح! . علقت إحداهن:

- حوطتها بالخمسة . . . جدتها أم غانم! .

ولما انتهت من الترحيب وتبادل المجاملات اتجهت للشرفة لتلقي نظرة مشغوفة على صف الرجال ولتتبين سبيل الوصول إلى السماعة الفائضة . . . لقد أصرت لدى صاحب مكبرات الصوت أن يحضرها لأمر في نفسها . رأت الضيوف متجمعين هناك ويتدافعون لتهنئة زوجها وهم يغادرون الحفل فبهتت ، قالت لها جارتها أم «شبين» العريس :

- ضيوف اليوم ما عندهم صبر على العرس العربي ! . فتشجعت ابنتها وقالت :

- قلت لكم : الحكاية معروفة . . . يأكلون ويصلون ثم يباركون ويذهبون .

أحست بضيق وبفيض يملأ رئتيها . . . تقدمت حتى الحافة ووضعت كفها اليمنى على أذنها وأطلقت زغروطتها . . . وذاب الصوت في ضجيج مكبرات الصوت التي كانت تردد بعناد هتاف الحادي وشباب القرية - على قلتهم - وعلى رأسهم الحاشية وأبو العز :

- «سيفنا ماضي زمان»

«كلام للبيع»

دعاني للجلوس أمام مكتبه، ورغم محاولته الدؤوبة لاجتذابي ريثما يعود محمود فإنه لم يقدم لي شيئاً. بين كل محادثة هاتفية وأخرى كان يطمئنني أن محموداً قادم وسوف يقوم حالاً بتركيب المسجل، وعندما عرف اسم قريتي أخبرني أنه ضابط متقاعد وراح يحدثني باندفاع عن معارفه من الدروز وعن زياراته العائلية لهم في المناسبات وفي عطلة نهاية الأسبوع وأكد لي أنه نصحني باقتناء أحسن مسجل لسيارتي، وأنه لا يفرط به بهذا السعر إلا للزبائن الذين «يرشق قلبه لهم». قال:

- «انا أخب الدروز... أعرفهم من الجيش، وهم يأتون كثيراً إلى هنا... أصدكائي يأتون دائماً، وأنا أعرف عن الدروز كل شيْ إنهم ممتازون... على كيفك». تساءلت:

- أليس لك أصدقاء من غير الدروز، أصدقاء عرب...؟

- «لأ... لأ... ما لي أصدكاء عربيم. أنا لا أخب العربيم».

- لماذا؟... ألم تصادفهم في الجيش؟ أليس لك زبائن عرب؟

- «كليل!... أصدكائي دروز فكط. زوجتي تخب أكل الدروز... إنه ممتاز». فاندفعت أسأل:

- هل يزورونك في البيت؟ . تشاغل بالرد على مكالمة أخرى .

- وانتظرت . تبادر لذهني المثل العاميّ الذي يقول : «قنطار مسك مش لله » وقررت أن أعمق أكثر بعد أن ينهي المكالمة وقلت في نفسي :

- هو بيع كلام، فلنتسل ريثما يعود مخمود، ثم وقد اتفقنا على السعر فلست بحاجة للمجاملة .

عندما وضع السماعة كانت سيارة تقترب وتفرمل أمام المحل . أسرعت بطرح السؤال ثانية عليه وكان ينظر باهتمام وبانفراج أسارير إلى الخارج . لم يلتفت لسؤالي . هب واقفاً وتقدم من المدخل المطل على الساحة وكنت أتابعه مستغرباً . سأل الفتاتين والسائق الذين ترجلوا عن سبب تأخرهم . أجاب السائق باستخفاف :

- انتظرتهما . . . لقد تأخر القطار . التفت السائق إلى الفتاتين وأضاف :

- أليس كذلك؟! . قهقه ثلاثتهم ودخلوا المحل وكان السائق يدفع الفتاتين بكلتا يديه . قالت إحداهما :

- «مخمود خبُّوب، أخذَنا أولاً إلى المركز التجاري واشترى لنا شوارما وبيبسي، ماذا تكول عنه يا أبي»؟ وأردفت الأخرى بالعبرية :

- وحمل الحقيبتين من المحطة إلى السيارة . هز الأب رأسه وتطلع

إليّ بطرف عينه وهو يداري بقايا ابتسامة على وجهه في حين اندفع صوت أم كلثوم من مسجل كان محمود يحركه وقد انتثرت أسلاكه على طاولة صغيرة في طرف المحل.

عدت بعد بضعة أشهر لأصلح العطل الذي أصاب المسجل فوجدت المحل مقفلا. قال لي صاحب الكشك المجاور:

- الخواجا أغلق المحل ثم باع البضاعة. ولما لاحظ استغرابي أضاف: محمود تزوج وفتح محلاً له في قريته. سألت باندهاش:

- ألم يجد غير محمود؟ فضحك وقال:

- كل «المحاميد» الذين عملوا عنده من قبل تركوه وفعلوا مثل محمود... يظهر أنه مل... كان محمود حبوباً وجلب له الزبائن. صمت صاحب الكشك وناولني علبة كوكاكولا مقسماً أنها على حسابه وقال:

- أتصدق؟ الخواجا تأثر كثيراً ودمعت عيناه عندما تركه محمود! كان يحبه كأنه ابنه، لقد زار أهله مع عائلته عدة مرات... الشهادة لله كان يحبهم، كان يحب العرب.

أردت أن أسأله إن كان استضافهم كما استضافوه لولا أن صاحب مكتب العقارات المقابل ناداه من الشبّاك وطلب منه بالعبرية أن يوصل إليه زجاجتي كوكاكولا.

« الحاشية »

١

يقف الصقر على طرف شاربه ومع ذلك فإنه ليس ممن يُحسب حسابه، أما إذا حان وقت الفرح و «الهيصة» فهو الضالة المنشودة من الجميع، هو الحاشية الذي تعليماته وإشاراته لا «تخر»، وهو الزمار في حلقة النساء، وهو «الرويس» الذي «يطرح الدبيكة» وهو «الصويت» الذي يلعلع صوته حين تنبحُّ كل الحناجر، لكن إذا انعقدت حلقة القوم فهو عنها مغيب دائماً، ولم تنفعه إزاءها مهابة شاربيه ورشاقة قده ولا تفانيه.

٢

قالت له أم رباب يوم سألها يد رباب عقب إحدى السهرات وقد كانت سجالاً بينهما:

- «تعيش يا كديش تتشوف الحشيش» وأدارت ظهرها له وهي تتمتم ليسمع: «شوفوني وشوفوا طولي وشوفوا رنات حجولي»، ومضت تمضغ كلماتها بحنق. مر أكثر من شهر بعدها وهو يتحرق

لرؤية رباب ، وعندما التقت عيناهما أمام دكان مرزوق دست رأسها بين كتفيها وولت مسرعة .

٣

دخل مرة مضافة الشيخ وكان عنده ضيوف فسلم وجلس في طرف المضافة ، واستغرب إلحاح أحد الضيوف عليه أن يعدل مكانه ويقترب من مجلسهم ملوحاً صائحاً :

- إلى هنا يا شيخ إلى هنا ، إقبل خاطرنا . . . ، وظل الضيف واقفا لا يجلس إلى أن أشار له الشيخ بيده وحاجبيه أن يجلس فجلس الضيف وهمد . تمتم أحدهم :

- «يا شايف الزول . . . » وران الصمت طويلاً .

إنه لا يزال يذكر تلك الإشارة وذلك الصمت فيحس بالنار تكوي حتى منبت شاربه .

٤

عاد الى غرفته في إحدى الليالي متأخراً ، كانت القرية نائمة ، وكان في داخله خفقان وحيرة ، ضغط على زر النور وفتح الشباك

فلامس وجهه هواءُ الليل وشم رائحة الفضاء الرطب، اتكأ على الإطار الخشبي ومد نصف جسمه العلوي خارجه، ملأه شعور غريب. . . نوع من الغبطة والرغبة لتحقيق شئ ما. كم كان وجه رباب جميلاً هذه المرة، لقد وقف يحدق فيه من مكمنه في الخرابة وهي تدلي نصفها العلوي من الشباك، ولما اختفت ترك الخرابة وطاف في الطرقات إلى ان هدأت القرية. نظر إلى القمر والسماء الصافية فازداد غبطة، تراجع عن الشباك وحمل المرآة من على الرف المحاذي وراح ينظر فيها.

٥

طرق أبو رافع الباب طويلاً ولم يرد، وسمعه يسأل الجيران عنه فلم يهتم. الليلة سهرة رافع. ليسهر أهل «البلد» بدونه هذه المرة! . .

عندما حل المساء كثر الهرج في الطرقات المؤدية إلى الساحة القريبة من غرفته، ملأه إحساس بالرغبة للخروج من عزلته لكنه كان قد قرر أن لا يبرحها إلا في الظلام إلى الخرابة.

ارتفع صوت الغناء وملأ المكان، ولعلع صوت رباب ففتح الشباك واتكأ عليه ودلى نصفه العلوي في الفضاء ونسي نفسه، وظل صوت رباب يلعلع، وعبثاً حاول الشبان مجاراتها. سمع الرجال

يسألون عنه ويحثون أهل الفرح لاستحضاره «من تحت الأرض» . . .

بدون أن يدري وجد نفسه ينسل من مكمنه باتجاه الساحة ، وقبل أن يصل امتدت يداه كالعادة ليسوي شاربيه فلم يجدهما ، آه . . . لقد قصهما ، تذكر ليلتها وهو ينظر في المرآة ما همس به الضيف فاشتاق للبساطة كما وجه رباب وهواء الليل ورائحة الفضاء . . . تسمر في مكانه ، تلفت حوله فلم ير أحداً ، استدار عندها واندس في الظلمة المؤدية إلى غرفته قبل أن يراه أحد .

أصدق الدموع

١

تحسن هذا النوع من البكاء أكثر من كل النساء، وحين تنجذب القلوب «تغرز إبرتها لتحيك الثوب الذي أرادت». هكذا تُعرف في الناس. وإذا ما استثيرت «ووضعت ربها من خلف ظهرها» فإنها لا تتورع من أن تجعل أبيض الأمس أسود وأسوده أبيض فترفس أُلفة الأمس وتمسح مجافاته دون أن يهتز لها جفن. لقد علمها المراس أن العبرة في السرد وأن الناس في أغلب الأحيان «سَمّيعة» لا قضاة.

٢

كثيرا ما تهرع إلى المرآة - لما تنفرد وحدها في الدار - وتتقرى كل مسامة في وجهها. . . آه! لم يعد «المكياج» قادراً على مقاومة الزمن فيه، لكم أحست بموجة من الثلج تنزلق من قمة رأسها إلى قدميها وهي تتقرى فتخاف وتتراجع الى الوراء، ثم تقف لتتأمل قوامها. . . إنه يزداد تَرهلاً فتتضاعف موجة الثلج ويملؤها الذعر، عندها تلجأ الى شعرها بكلتا يديها، تضمه يميناً وشمالاً وإلى فوق فتطمئن الى غزارته وتهدأ نفسها بعض الشئ، ثم تكشر عن أسنانها وتقترب

لتتفحصها بالأصبع . . . ماذا ينفع الندم . . . ! لم تكن تستعمل معجون الأسنان فاهترأت الطواحين ، وعندما تأذت الأمامية منها عرفت أهمية تنظيف الأسنان بالمعجون .

٣

قال الزوج يومها في بداية الطريق :

- المكتبة في البيت أهم من الشمعدان فحدجته بقسوة وفي الغد اشترت الشمعدان .

وعندما استفاض في استحسان «قوارة الزهر» التي أحضرها صديقه فؤاد هدية لزواجهما اعترضت بشدة على ذوقه السخيف ، وفي الغد اختفت القوارة من مكانها . وعندما نصحتها حماتها بأن المحافظة على تدفئة الأطفال أهم من الغذاء خلعت «كنزة» الصوف عن بكرها فمرض بالسعال الشديد . وبعد سنين قال الولد البكر :

- احب الموسيقى . . سأتعلم الموسيقى . . . ! فثارت ثائرتها ، وتطلع المسكين إلى أبيه مستجدياً فتشاغل حضرته بمداعبة شنبه الضخم وبمتابعة برنامج المصارعة في التلفزيون . أما بقية الأولاد فكمتوا ضحكاتهم كما اعتادوا في مثل هذه المواقف ، وثبتوا عيونهم على التلفاز . . .

٤

رجع الزوج في أحد الأيام متأخراً، وكان يجر جسمه الثقيل جراً وهو يسرع عله يتفادى بعض اللوم، مر بدار صديقه القديم فؤاد ولم ينتبه له، قال فؤاد في نفسه:

- «الكبر لله». ومر بجاره إحسان فحياه وهو يلهث من التعب ولم يسأله عن حاله، فقد خرج من المستشفى قبل أيام، ولما ابتعد قال إحسان لنفسه:

- مسكين... ! «الرجال مش بالشوفة». لما وقف قدام الباب التقط أنفاسه وسوى هندامه واقترب ببطء وأصاخ السمع... تعجب من الهدوء. فتح الباب دون أن يدقه فانجلى عن زوجته والمرآة بكلتا يديها فذهلت للمفاجأة ورمت المرآة على الأريكة وانتفضت واقفة وصرخت في وجهه بحزمها المألوف وهي تمسح دموعها:

- أين كنت؟.. لماذا تأخرت؟... وعندما أحست أن في نظراته سؤالاً عنيداً أدارت له ظهرها وبشيء من الغنج قالت:

- لا تتأخر هكذا مرة ثانية.. أنا لا أستطيع.. لا أقدر، وأجهشت بالبكاء. اطمأن الزوج الى رجولته وتنفس الصعداء.

٥

في اليوم التالي قالت :

- نسهر الليلة عند هنية وحامد . . . ، انقطعنا عن زيارتهم بدون سبب . . . ، مات أبوها العام الماضي و «قصرنا» معها ، صحيح أنها «طولت لسانها في قفاي» ولما أخبرتني إنصاف بالأمر «غسلتها على التلفون غسلة أخت شلن» . تململ الرجل وقال :

- لكن . . . فقاطعته بحزم :

- لا لكن ولا بطيخ ، حامد كان صديقك و «ابن صفك» سنسهر عندهم لتطق «أختك إنصاف» ويطق «زوجها الذي لا يعجبه العجب» ثم التفتت اليه وهي ترفع سماعة التلفون وأردفت بلهجة مصرة وحركة اهتزاز عنيفة لرأسها وكتفيها :

- يا سيدي ولتطق «أمك» وليطق «كل الناس» ، وراحت تدير القرص .

٦

عندما وقفا بالباب كانا بكامل زينتهما ، تقدمت هي ونقرت على الباب نقرات خفيفة وانتظرت ، ثم نقرت من جديد نقرات

أقوى . . . وتقدم هو ونقر بأشد منها ولكن لم يفتح الباب، التقت نظراتهما، كان وجهها أصفر وملامحه جامدة كالزجاج . . . تلفت حوله . . . لم يكن من أحد فحمد ربه وهمس :

- «عملوها فينا» . . . نرجع إذن قبل أن يرانا أحد . لم تجب، ظلت جامدة كالصنم وفجأة ارتمت على كتفه تبكي بكاء صامتاً غريباً لم يألفه من قبل وأحس بحرارة دموعها المنهمرة على قميصه الحرير فسرت في كيانه رعشة طالما تمناها .

عندما تنبح الكلاب

الليل أشد سواداً من ذيل الغراب، والمطر يهفت، والصمت عميق كأنما يتغور في نفق سحيق، وسعد الصابر يرهف السمع من مكمنه خلف شجرة التفاح متحفزاً لكل طارئ.

قال له والده مرة: «إن لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب»، لا يذكر بالضبط متى كان ذلك، لكنه يذكر تلك الصرامة في ملامح وجهه والنبرة الحادة في صوته، ورغم أنه لم يكن ذئباً مع لداته أبداً إلا أنه لم يطق أن يكون مهضوماً في يوم من الأيام، وها هو يتحدى المهانة ويقف لها بالمرصاد.

قالت له زوجته أمس «لو تكف عن هذا الوسواس»، تظاهر بعدم الفهم وسألها إن كانت راغبة بمشاركته في احتساء القوة التي أعدها للتو.

عندما تنبح الكلاب في الظلام لا شك أن آدمياً يتحرك، وفي مثل هذا الوقت فإنه لا بد آدمي مشبوه، لهذا قفز من مقعده كالقط وفتح باب البيت بحذر شديد وابتلعته الظلمة إلى مكمنه خلف شجرة التفاح حيث كان قد ثبت لوحاً خشبياً بين جدار الحديقة وجذع التفاحة ليقيه المطر، وها جاءت ساعته الآن.

المطر شديد والبرد شديد والصمت يلف الكون وكلب الجيران كف عن النباح، لعله رأى قطاً هارباً من السيل المتدفق فنبح، أو لعله فوجئ بوقع الهطل فأعلن وجوده واندس يلوذ من البلل والبرد.

تحسس سعد ما خبأه تحت معطفه ليستعين به في مفاجأة المتطفل في هذا الوقت ثم شد أطراف المعطف حول جسمه ومؤخرة رأسه، وتمنى لو يشعل سيجارة، وراح يغرز بصره في العتمة ويرهف السمع وينتظر، فقد تكون الليلة نهاية انتظاره، إذ يقول العارفون إن المجرم لا يفتأ يحوم حول مكان جريمته، من يدري؟ أتكون الليلة موعد الحساب؟ إن كان كذلك فربما ينجلي الأمر عندما ينقطع المطر أو عندما يخف، إنه لا شك يرقد في مكمن من البلل يتفحص الليل ليهب إلى مراده، أحس سعد بقشعريرة تسري في بدنه، لن يكون ليناً «فمن لا يكون ذئبا أكلته الذئاب» سيراقب تحركه، لن يدعه يغيب عن عينه، وإذا لزم الأمر يلحق به بخفة وحذر ثم يفاجئه متلبسا.. وعندها..

مرة أخرى ملأت القشعريرة بدنه، أيهوي عليه بضربة تفقده صوابه؟ ثم.. وماذا لو تبين له انه ابن أحد المعارف؟ وماذا لو آذته الضربة؟ وقد تكون قاضية؟ يضربه إذن ثم ينسل إلى الى البيت فلا من سمع ولا من رأى، ومن يضمن أن الأمور ستسير هكذا؟ ألا يمكن ان يصرخ او ان يحتمل الضربة ويهب من هول المفاجأة ليدافع

عن روحه؟ . . . إذن ينتهره قبل أن يقترب منه، وعندها يسمع الجيران فيستسلم ويسلم للشرطة . . . ، ومن يضمن أنه لن يهرب؟ أنه لا شك موقن النفس على ذلك ولا بد أنه حاذق في الأمر ويحسن التصرف فيه، ثم ماذا لو أخذ المهرب عليه؟ ألا يعقل أن يقاوم؟ بل هل يعقل لمثل هذا الصنف من الناس أن لا يكون مستعداً لكل الاحتمالات؟ ليكن ما يكون، المهم أن لا يفلت بدون اعتراض بل الأصح بدون عقاب.

مسح الماء المتهافت على جبينه من أحد ثقوب اللوح وحرك جثته ليتفاداه، فحرك اللوح الخشبي فوقه وسمع له صرير خافت جعله يتسمر، ثم ملأت الكون فرقعة متلاحقة للرعد وتبعها نباح كلاب لم يفتأ ان أغرى كلب الجيران بمشاركة لم يرتح لها، خيل له أنها آتية من مكان عميق، وعقب ذلك ارتطامُ المطر الغزير بالأرض فابتلع كل الأصوات إلا صوت خفقان قلبه.

آه لو يشعل سيجارة، كم هو مشتاق لأن يفعلها، ستهدئ من تشنجه وانفعاله وتعوضه حرمانه من دفء الموقد إلى جانب زوجته أمام التلفاز، بل أنه سيفعلها، ولم لا؟ ففي مثل هذا الجو العاصف لا أحد يراه، وسيشعلها بعد أن يغطي كل رأسه بطرف المعطف ومن ثم يأخذها بكلتا يديه، ويطبق عليها بكفيه، ويمج، ويطلق عينيه في كل اتجاه، من الأفضل أن يسرع إذن - قال في نفسه - قبل ان تسكن العاصفة.

أشعل سيارة ومج حسبما خطط وراح يحدق في العتمة من جديد، ثم غمر وجهه بكفيه مرة أخرى ومج وحدق . . . ومج وحدق . . بدأ يخف صوت ارتطام المطر، وبدأ الهدوء يعود رويداً رويداً . . . ولم تعد الكلاب للنباح، وتأهب، لعل الليلة تكون نهاية انتظاره. أحس بخدر في ركبتيه فاتكأ على رجله اليمنى ومج وأطفأ السيجارة واستعان بساعده الأيمن، ثم لم يلبث أن تحول إلى اليسرى . . . ثم الى اليمنى . . . ثم إلى اليسرى . . . ثم لكلتيهما . . ثم انحنى للأمام متكئاً على ركبتيه وساعديه معاً، ومد رأسه قدام جسمه ليواصل التحديق فخرج عن مدى اللوح الخشبي من الجهة المنحدرة وسال الماء على مؤخرته وعلى أذنيه فانتفض وتراجع للخلف بحركة سريعة لاشعورية، فارتطم قفا رأسه بحافة اللوح وآلمه كثيراً لدرجة أسالت الدموع من عينيه فمسحها بكمه، ثم أحس بسائل يملأ منخريه ويسح على شفته العليا فعالجه كما عالج دموعه . . وعبثا حاول أن يكتم عطسة استحكمت وأبت إلا أن تنفجر بين كفيه، وفيما هو يعالج حالته هذه ويغالب عطسة أخرى سمع حركة ركض باتجاهه فوثب متأهباً بأقصى ما أوتى من ردة الفعل ووقف معترضاً فاستدارت الحركة وعند عامود الإنارة لمح كلب الجيران في أثر كلب آخر غريب.

قريد العش

١

رضع من ثدي أمه عشر سنين إلى أن تخطت سني الخصوبة، وظل يرتاح لتسميته «قْريد العش» حتى بعد الفطام بأعوام، وعندما صار يلعب مع الأولاد لم ترق له بداحتهم وعاكسهم فتخلوا عنه والتصق بأمه فكثرت ألقابه على ألسنتهم مثل «حبيب أمه» و «دَلّوع» و «خَدَاجة» فازداد ابتعاداً عنهم والتصاقاً بمجالس النسوة.

٢

سمع النساء وهن يقلبن فناجين القهوة في أحد الصباحات يتحدثن عن دواء طيب الرائحة لإزالة الشعر. بعد الظهر جاءت صديقة أمه لزيارتهم فانتهز فرصة انهماك أمه في المطبخ واقترب من الضيفة وراح يبحلق في وجهها ثم سألها لماذا لا تزيل الشعر النابت على شفتها، وإذ أحس بارتباكها أخبرها بوجود دواء طيب الرائحة فانتفضت واقفة وصاحت به:

- قرد . . . ! وأزاحته من أمامها ثم اقتربت من الحائط وراحت تتلهى عنه بالتأمل في صورة والديه . عندما رجعت أمه بالقهوة سمعته يقول للصديقة وهو يمسك فصطانها من الخلف :

- أمي وأبي . . . ! أمي تقول إن شعره كان مجعدا ، كان أحلى من اليوم . صاحت به واعتذرت للصديقة :

- ما أنا عارفة أدبره ، دلعناه لأنه قريد العش فصار «مسحوباً من لسانه» كما ترين ، ثم اقتربت من أذنها ووشوشتها ففغرت الصديقة شدقها وعينيها وضحكت مجاملة وضحكت الأم بشيء من الحياء ، ولم يفارق مجلسهما .

٣

بعد أسبوع من إرساله مع أخته للروضة توقف عن البكاء والانزواء ، راح يراقب جوجو وهي تلعب مع دميتها . اقترب من جوجو وتحسس وجه دميتها فكشرت وأزاحته عنها ، جلس على ركبتيه وظل ينظر . حملت جوجو دميتها وصارت تهزهزها لتنام . قال لها مستغربا :

- لقد أغمضت عينيها . . . نامت ضعيها في الفراش . اقترب وحاول أخذ الدمية من بين يديها هامساً :

- نامت . . نضعها في الفراش . بان الضيق على وجه جوجو وكزت على أسنانها ونطحته برأسها فتراجع وهو ممسك بذراع الدمية فسحبت جوجو الدمية نحوها بعصبية فانخلعت الذراع وبقيت في يده ، عندها صرخت به :

- قرد . . . سمج . . . إلعب مع الصبيان ! هذي اللعبة للبنات ! ورمت الدمية وراحت تضربه على رأسه وكتفيه وظهره إلى أن فكتهما المعلمة .

٤

انقسم الأولاد كعادتهم قبل كل مباراة إلى فريقين ولم يكن من المحظوظين باللعب في هذه المرة أيضاً ، كان على الفريق المغلوب أن يحضر للفريق الغالب كيس لوز أخضر من الكروم ، سمعهم يذكرون لوزات الوقف ، وسمع سرحان رئيس أحد الفريقين يقول :

نلتقي على العين الشمالية بعد المباراة ، لوزات الوقف ليست لأحد . تحمس لفريق سرحان وراح يصفر له مع المصفرين ويحمس مع المحمسين ، لقد أعجبه سرحان وصار كلما استحوذ سرحان على الكرة ظل يصيح :

- سر . . . حان ! . . . سر . . . حان ! . لكن فريق سرحان خسر واستعد للغرامة المتفق عليها . التفت سرحان إليه وسأله :

- تجيء معنا؟ . . . الشيخ حمدان جاركم ، إن كان في الكرم تذهب إليه وتلاهيه ، الباقي نحن نقوم به . مشى في المقدمة إلى جانب سرحان والتقط قضيباً كان ملقى على جانب الطريق صار يتكئ عليه مرة ويضعه على رقبته ويمسكه بكلتا يديه مرة أخرى ويلوح به ويهزه في الهواء ويضرب النبات على جانب الطريق إلى أن وصلوا الكرم . . . لم يكن أحد هناك ، تطلع إلى سرحان فابتسم له وقال :

- صرت واحداً منا ، افعل كما نفعل ! . شارك في قطف اللوز الأخضر وملأ جيوبه . فجأة تقافز الأولاد وراحوا يركضون ولم يدر ما الأمر حتى سمع الشيخ حمدان يصيح تحته :

- إنزل يا قرد . . . ! يا عفريت ! . كان في يده قضيب يهزه ويتوعده به . سحل عن الشجرة ذليلاً حتى لامست رجلاه الأرض فتناوله الشيخ من كتفه ورفع القضيب فانفجر بالبكاء وتساقط وهو يرجوه أن يسامحه . ظل قضيب الشيخ حمدان مرفوعاً في الهواء وهو يتعوذ بالله ويتمتم :

- حتى أنت يا «قريد العش» ، صرت تسرق اللوز الأخضر مثل العفاريت التي خلقها ربنا؟ ! .

٥

- خرّبتِ الولد! قال الزوج لزوجته، صار «بنوته» بسبب دلالك الزائد.

- فأل الله ولا فألك! قالت الأم، ماله؟ خزيت العين عنه... إنه زينة أولاد الحارة.

- الولد في سنه يكون عفريتاً وهو لا يحسن إلا الدلع والغنج، كيف يصير رجلاً إذا ظل على هذا الموال؟! غضبت الزوجة واستدارت وهي تتمتم:

- لا يعجبك العجب! هو عفريت وأكثر من عفريت... لكنك...! نسيت فعلتك معه يوم لوزات الوقف؟! أنت دائماً تبخس به... حرام! حرام!. صمت ثم أشعل غليونه وراح يسرح نظره. لفت انتباهه بقعة من الضوء تتراقص على جدران البيوت وتحط على شباك جارهم سعيد النوري ثم تختفي وتعود من جديد فراح يتسلى بالمشهد الغريب. فجأة أطلت من الشباك يد ترفع حذاء باتجاهه فتقع بقعة النور عليه وتستقر. قام من مقعده بهدوء وصعد إلى الدور الثاني ليجد ابنه المدلل يحمل مرآة ويوجهها نحو الشمس ويصوبها باهتمام شديد.

لماذا يضحكان

قلت لك : أملهني واتَّكلْ على الله ، لم تصغِ إليَّ وركبتَ عنادك ، فاحتملْ ما جنت يداك .

هكذا سمعته يقول عندما دخلت عليهما دون استئذان - لأول مرة أدخل بيتاً دون استئذان - ، وسرعان ما لمحني أبو علي فانقطع عن توجيه كلامه والتفت إلي بارتباك ، ثم وقف واتجه إليَّ مرحباً بشيء من التكلف وقادني إلى صدر الصالة دون أن يكف عن المجاملة ، فانسقت له ، وأجلسني بشيء من الليونة المصطنعة وجلس قبالتي بعد أن أمر ولده الواقف في الطرف الآخر ، حيث كانا عندما دخلت أن يحضر بارداً . تابعت الولد بنظراتي حتى اختفى ، وجلس هو قبالتي مؤهلاً وفي لمحاته قلق لا يخفيه تصنُّعُه لحسن الاستقبال ، قدم لي سيجارة ، كدت أعتذر . . . لكنني قبلت العرض أملاً في أن يساعد ذلك على إزالة الحرَج ، وأخذ هو سيجارة لنفسه وهو يقول :

- أولادنا لا يسمعون إلا ما يدور في رؤوسهم ، وعندما يقعون يصبحون أكثر ليونة من خيط الصوف . ثم انحنى نحوي مادّاً يده بالولاعة ، فانحنيت بكل ما أوتيت نحوها وأشعلت سيجارتي وعدلت جلستي ونفخت الدخان على مهل مستغفراً وحدَّقت في

السيجارة المشتعلة وفي الدخان المتصاعد أمام وجهي منتظراً أن يكتمل تهيؤ الجو للحديث، ثم مججت ونفخت، وتابعت التأمل وقد عرتني رغبة أن يبدأ هو لأطمئن إلى نوع الخطاب الذي يليق، ولما التقتْ نظراتنا عبر قناعي الدخان ابتسمنا، لقد رأيت شفتيه تنفرجان ثم تنحنح وقال:

- أهلاً وسهلاً، فتنحنحت وشكرته، ثم عدل جلسته قبالتي ففعلت مثله، وتنحنح وكرر التأهيل بي فحدقت في وجهه وشكرته.

كانت ملامح وجهه هادئة وبدت لي مهيأة لبدء الحديث، قلت في نفسي لأنتظر قليلاً علّه يبدأ...، وفجأة دخل ابنه بالبارد فأحسست بالراحة لهذا المخرج... تابعت الولد بنظراتي حتى وصل أمامي، لقد تعمدت أن أتفرس ملامحه عن قرب لأتأكد من صورته ومن هيئته فقد أكد لي أحد الأولاد حين مر بي وأنا واقف ألهث على طريق القرية بعد أن أعياني التعب وضيق النفس عن اللحاق به:

- انه حسان ابن أبي علي. حقاً... الشبه كبير، لا شك أن ذلك الولد صدقني القول....

أخفضت بصري واخترت كأس الماء تاركاً كأس الليمون لأبي علي. لم أشكره كما هي العادة، لقد أحسست أن صوتي تهدج من الموقف فأسرعت برفع الكأس إلى فمي واكتفيت بالرد على أبي علي

الذي أكد لي بان كأس الليمون أجدى في مثل هذا الطقس الحار بتحريك عيني وحاجبي، تراجع حسان خطوة ووضع الطبق وكأس الليمون على المنضدة القريبة ومضى، كم أهاجني هذا الحياء، لعله لا يطيق تعرضه لنظراتي هذا الولد الملعون، إنه هو . . . لا شك في ذلك، وإلا لماذا كل هذا التلعثم؟ إن أبا علي رجل شجاع ومحسوب ولا يعقل أن يكون عنده ولد في مثل هذا الضعف . . . إنه إذن ضعف المذنب إزاء الافتضاح، ثم ما هذا التوبيخ الذي سمعته حين دخلت فجأة ودون استئذان: «احتمل ما جنت يداك»؟ . . . لعل أبا علي قد عرف فعلة ولده وكان يوبخه عند دخولي ولما اقتحمت عليهما فاجأتهما، ولهذا كان هذا الحرج الذي لم ينته حتى الآن.

تنحنح أبو علي مرة أخرى فنظرت إليه فابتسم وقال وهو يطفئ سيجارته: بماذا تفكر يا رجل؟ كأن في خاطرك أمر . . . فهاته، صحيح أننا لا نتزاور، لعن الله ضيق الوقت، لكننا معارف وأحباب.

فطنت أن الكأس ما زالت في يدي فوضعتها على الطبق وأطفأت سيجارتي وتهيأت للكلام وقد غمرتني هيبة الرجل فشكرته ثم رحت أجامله متحاشياً الخوض في الموضوع مباشرة أملاً في أن يبادر هو فأعرف موقفه أولاً، وتتابعت عبارات المجاملة بيننا دون جدوى، ثم رحت أتذمر أمامه من قلة حياء أولاد هذه الأيام لعله يفطن إلى غايتي لكنه تغابى وبدا كالأطرش في الزفة، والأنكى من ذلك أنه

راح يشاركني الرأي ويأتي بالشواهد بحماس يفوق حماسي، وفجأة أخرج من جيب معطفه ورقة وقال وهو يفضها:

- أُنظر يا صاحبي أنا لا أُحدثك عن أولاد الناس فحسب، ولدي حسان هذا الذي رأيته الآن عمل رخصة سواقة منذ أقل من شهر، وأصرَّ أن يشتري سيارة مثل غيره، طبعاً ليس بدون تشجيع من أُمه . . . ، سيارة للبيت كما يقول . . ! نصحناه أن يتمهل حتى تتيسر الأمور أكثر فنشتري سيارة تليق فلم يسمع كلامنا وأصرَّ أن ما وفره كفاية، واشترى «خربوشة» دون أن يستشير من له معرفة بالسيارات، فألححنا عليه أن يأخذها للفحص، على الأقل، لنضمن، سلامته، واليوم ناولته أُمه أُجرة الفحص وعندما عاد قبل قليل سمعته يقرأ عليها قائمة النواقص التي في هذه الورقة وهو لا يعلم أنني سامع من هنا، ثم راح يطالبها بأن تقنعني بتحمل التكاليف بحجة أنه دفع للبائع كل ما كان معه فناديته إليَّ «لأمسح الأرض به» فشرفت حضرتك وأنقذته.

قُلت بتلهف:

- وهل يعمل حسان؟ واستدركت: هل يكسب على الأقل؟

ضحك أبو علي ضحكة ساخرة وقال:

- إنه طالب في الثاني عشر . .

- ألم يخرج من البيت بعد أن عاد من الفحص؟ لمحت وجه أبي علي يمتلئ بالدهشة، وقبل أن يرد تذكرت في مثل لمح البصر أن قميص ذلك «المسخوط» أخضر وأن قميص حسان رمادي فأردفت:

- ألم يغير قميصه مثلاً؟ تجهم أبو علي وانتفض مستفسراً بقلق:

- لماذا تسأل هكذا؟ قلت أطفأ السيارة ودخل إلى أمه فسمعته فناديته ودخلت أنت.. ما الحكاية؟

بلعت ريقي وأشعلت سيجارة من عندي دون ان أقدم له متظاهراً بالجد.. فقد أحسست بثلوج العالم كلها تنصب فوق رأسي. سحبت نفساً طويلاً وعدلت جلستي واتكأت على ركبتي جاعلاً السيجارة بين إصْبَعَيْ يمناي الممدودتين فاصلاً بين وجهي وبينه ورحت أسرد عليه:

- كثرت يا أبا علي الأفعال المشبوهة في حارتنا فاجتمعنا ليلة أمس، كل رجال الحارة «العرجا والمكسورة» للمذاكرة - كما يقولون -، وخِبْرَتُكَ في مثل هذه الحالات... راح الرجال يقلبون الأمور ويقترحون ويخمنون، وزاد الحماس عن الحد ولكن أحداً منهم لم يشر إلى الفاعلين رغم أن أعراضهم انتُهكت ودماءهم سُفكت من الجميع، وتعالى التهديد والوعيد، وكان بين الحاضرين سمور، تعرفه، سمور ابن علي الدهان، «نِمْسْ»، «يمسك بها وهي طائرة»، ظل ساكتاً حتى حمي الجدال حولَ من له مصلحة في مثل هذا الأذى

لأهل الحارة، والجميع يدورون ويلفون ولا يصرحون. عندها وقف سمور وقال بلهجة جادة:

- أنا أقول لكم من الفاعل، فصمت الجميع، ثم تابع:

- كلكم تعرفونه، لا أحد هنا لا يعرفه أنكم تتحاشون ذكره ومنذ بداية السهرة ما زلتم تلفون وتدورون، ما بالكم؟ سأُريحكم من هذه المهمة ورزقي على الله... ! خيّم الصمت على المكان حتى صار يُسمع نفس الرجال، توقف سمور برهة وتأمل الوجوه وبلغ ريقه وأردف:

- المسألة واضحة مثل عين الشمس... ألا تعرفونه؟ من يقوم بهذه الأعمال المشينة غيره؟ أحقا لا تعرفونه؟ أنه حسان ابن أبو علي، وجلس سمور. لم أدرك لماذا همد حماس الحضور وكثر الهمس، ثم بدأ الرجال ينسحبون واحداً تلو الآخر دون أن يحزموا أمرهم... أستغفر الله ! لقد غاب عني المعنى لغباوتي... وبعد أن انقطع نفسي اليوم في مطاردة عفريت كان يسرق المشمشات صاح عليّ أحد «الشياطين» من بعيد وأكد لي أن العفريت الذي أُطارده هو حسان ولدكم، - ويشهد الله أني سمعته يقهقه بعدها - سامحنا يا أبا حسان فأنا لم أنتبه إلى أنه أشار إلى حسان ابنكم على سبيل التهكم.

راح التجهم فجأة من وجه أبي علي وانفجر بالضحك وضحكت

معه، وفي هذه اللحظة أطل حسان حاملاً القهوة فوقف مشدوهاً وفي عينيه الجاحظتين تساؤل:

- لماذا يضحكان هكذا؟ . . . ولما تأكد من أننا لا نعيره انتباهاً تنحنح وابتسم وتقدم نحونا.

شجون الزمن الضائع

منذ عشرات السنين لم ير كفيه على هذه الحال المزرية. لطالما اجتهد أن تبقيا آية في النظافة والليونة. حتى أظافره التي تعهدها بحرص تعلن عودتها لأيام الشقاوة.

منذ وصل قبل شهر وضع خطة تكفل إقامة لائقة في دار أهله كلما عاد، وأخيراً أمضى مساء أمس في تلميع «معاميل» القهوة السادا المهجورة منذ سنين ثم صفها في «المنقل» وجعلها في موضعها من المضافة حيث كانت منذ وعى على الدنيا. راح يتأملها من كل جانب، وصارت تتقافز في ذاكرته وجوه كثيرة، وراح يمتلئ شوقاً إليها. أراد أن يعرك عينيه فانتبه إلى اصطباغ يديه بالسناج وكلف النحاس فقرر أن يتحمم ويخلد للفراش. من جديد تناوبت قلقه أفكار وأحاسيس صارت تحاصره بإحساس خفي يسائله عن جدوى ما يقوم به. مراراً دفع هذا الإحساس بعناد، لكن سرعان ما كانت تأخذه نوبة أخرى وأخرى إلى أن غيبه النوم.

فتح كفيه وقلبهما أمام عينيه وابتسم. أحس برغبة في اقتعاد جذع الزيتونة الرومية القائمة إلى جواره. اقترب من الجذع. تلمس خشونته وهبط. نظر إلى القبر وتمتم:

- إيه كم أحببتَ أن أتعلم ! . . . أعرف اليوم كم قاسيتَ لذلك يا أبي ، ثم غمر وجهه واستسلم لهواجس متداخلة لا تثبّت فيه الأمان .

تقاعد ففكر في العودة إلى الوطن ، له فيه أهل طيبون وسمعة حسنة . كان موظفاً مرموقاً بين شباب القرية وتزوج من فتاة جميلة ومثقفة ، ثم حمله طموحه للهجرة والعلم فباع أبوه نصف أرضه ويسر له ولعائلته الصغيرة عيشاً معقولاً في الغربة إلى أن حصل على وظيفة مغرية واقتنى بيتاً يحسده عليه كل معارفه من المغتربين .

امتدت به السنون ولم يزر موطنه إلا في أعراس أخواته الثلاث ومأتم والدته ثم والده . وكبر الأولاد وتعلموا ولم ترق لهم فكرة العودة . كذلك زوجته لم توافقه . قالت :

- أربعون سنة هنا . . . صرنا من هذه البلاد . . . الأولاد تعودوا على هذه الحياة . . . لن يتأقلموا هناك . تذكر عندما ذهبنا لعرس نسرين كيف ظلوا غرباء ولم يعجبهم شيء . . . كانوا صغاراً بعد . . . في الابتدائية ! وظلوا يتندرون بما شاهدوه لسنوات بعد عودتنا .

- أرمم الدار وأهيؤها لزياراتنا إذن . قال لنفسه يوماً . وافقه الجميع على الفكرة ، وها هو منذ شهر يرمم دار الأهل ويرجع معالمها القديمة وينغمس في لذة استرجاع الأيام الخوالي ويعلن أنه من اليوم

فصاعداً سيمكث نصف سنة هنا ونصفاً في بيته هناك .

اليوم عند منتصف الليل سوف تقلع به الطائرة ، كم هو مشتاق الآن للزوجة والأولاد ، سيقص عليهم كل شيء . . . ! سوف يفرحون ، ستفرح سعاد كثيراً لأنها سترى أمها وإخوتها كل سنة . . . سيتعرف الأولاد على أقاربهم متى شاءوا . . . سيتعرفون كلهم على الأقارب وسيدرك الجميع هنا أن غربته لم تكن سدى . رفع وجهه ونظر إلى القبر وعدل مجلسه وقال في نفسه :

- بل سيعرفون أين يرقد جدهم وجدتهم . . . في المرة القادمة أزرع زهوراً ونباتاً أخضر كما يفعلون عندنا . سأوصيهم بأن يدفنوني هنا . . . ستكون هنا زهور وخضرة وروائح الأحباب ! . . . فاضت مشاعره دمعت عيناه فأرخى لهما العنان . شعر بعدها براحة لم يألفها في يوم من الأيام .

آله الجذع فتململ وأخرج منديلاً ورقياً من جيب قميصه ، مسح دموعه وأسند ظهره للساق وجعل كفيه تحته وضغط ليتقي الخشونة . استنشق هواء ملء رئتيه ، نفخه وقرر أن يعود إلى نفسه . . .

- سأعود ، هنا أفضل . أنا لن أقضي باقي العمر هناك . سيجنني البقاء في البيت بلا عمل . الأيام تمر مملة . على الأقل أعود كلما ضايقني الملل . الأولاد لن يعودوا . . أنا عارف أعمالهم جيدة ولا تهمهم الزيارة حتى . . . وسعاد لن تتركهم . ولن تبقى معي هنا

لأكثر من أسبوعين أو ثلاثة كما تهددني مازحة كلما ناقشتها بالموضوع. هي عنيدة وأنا متأكد من أنها تعني ما تقول. والأولاد معها وهي تحتج بموقفهم في ذلك. إيه... وأنا وحدي هنا؟ لا لا يمكن... لابد من الاتفاق على شيء ما معقول. ثم إن أربعين سنة في الغربة غيرت كل شيء هنا. البيوت، الشوارع، الوجوه... حتى اللباس والطعام والكلام... كل شيء تغير.

إيه... أربعون سنة مضت كلمح البصر قلبت الدنيا هنا. الكل يركض ولا وقت عند أحد. في الأسبوع الأول لوصولي تخيلت أن كل شيء على ما يرام... غمروني بفرحهم وحسبت أن ما تغير هو الوجوه والمشاهد فقط، لكن سرعان ما تبين لي أنهم مشغولون عني وأحسست من نظرات من ظل يطلطل من الأقارب والجيران استخفافاً لا أفهم مغزاه بما أحدّث وما أفعل. هل صدقت زوجتي إذن؟ تقول لما تضيق مني:

- تظن أن الناس ملهوفين عليك لتعود؟ أكثرهم سمع عنك ولم يرك إنها أربعون سنة!

أيه من هذا الإحساس الذي ينتابني في الأيام الأخيرة... جئت مليئا بالحماس لما عزمت عليه... أهو إحباط هذا الذي أحس به في عودتي؟

هب واقفاً. بحلق في كفيه المصبوغتين بسناج النحاس ولحظ أثر

الجذع الخشن فيهما . فركهما ببعض وتقدم نحو القبر مررهما على الرخام الدافئ الذي تم تركيبه منذ أيام وانتقل إلى الآخر ومررهما بحنان وبطء . . . تذكر كفي أمه في مواسم قطف الزيتون فعاوده الاختناق ودمعت عيناه فأرخى لهما العنان .

تجاعيد

١

مر بسيارته من قدامها مسرعاً كعادته وظلت هي تنتظر من يشاركها شرب القهوة التي تجهزها كل صباح، ثم مرت الكنة ومر الأحفاد وضحكوا لها، وككل مرة لم يشرب أحد منهم القهوة معها، كانوا مسرعين. أَسَرَّتْ لجارتها أمس أن أحداً منهم لم يشرب قهوة الصباح معها منذ شهور. لمحت شهوة الاستزادة في عيني الجارة فندمت لكنها عزَت فعلتَها لشدة ما تعزُّ عليها نفسها ثم لعنت الشيطان ومررت كفها على نَبتة الحبق عن يمينها ففاحت رائحته ووطنت النفس على الرضا بما هي فيه وشربت القهوة وحدها وظلت تداعب الحبق.

٢

قالت الزوجة يوماً:

- قهوة أمك كل صباح . . . ، لماذا لا تشرب القهوة في المطبخ؟

قال الزوج:

ما الفرق؟ هي قهوتها تشربها حيث تشاء .

- تشكو للجيران أنها تشربها وحدها .

- كيف تشربها إذن؟ جميعنا خارج البيت ، نذهب مسرعين وتبقى وحدها مع قهوتها .

- ألا بد لها من القهوة في الصباح؟ القهوة مضرة على الريق وهي عجوز .

- كلنا اعتدنا على ذلك .

- ألا يصح شربها إلا في السطيحة؟

- كان المرحوم يشربها هناك . كانا يسمعان أخبار المذياع ويشربان .

كنا نشربها معاً قبل أن نتفرق إلى مشاغلنا . . . رائحة القهوة طيبة في الصباح ! أليس كذلك؟

٣

عندما أوقف سيارته في صباح اليوم التالي إزاء السطيحة لم تكن أمه جالسة مع قهوتها ككل يوم ، ترجل واقترب من باب المطبخ ، سمع دندنة متواصلة كلحن حزين . توقف وأنصت ، إنه صوت أمه ،

هكذا كانت تغني له لينام . ابتسم وتقدم ووقف في المدخل مُحَيِّياً ثم سأل عن القهوة فهرولت نحو تنور الغاز مهللة لتشعله وهي تؤكد :

- يا قَبَّاري لحظة . . . لحظة وتكون جاهزة . لكنه نظر إلى ساعة يده وألح عليها أن لا تفعل لأنه لا وقت لديه . خرج معتذراً فلحقت به حافية وهي تلعن السرعة وتلوم نفسها على كسلها في صنع القهوة هذا الصباح ، وعندما تهيأ للسفر خلف المقود كانت يدها تمتد إليه عبر شباك السيارة بخصلة حبق عبقت رائحتها الطيبة وملأت صدره . وعندما أخذت السيارة تبتعد به إلى الأمام رأى في المرآة كثرة التجاعيد على وجهها هذه المرة .

في المصعد

أكثر الزملاء والموظفين أخذوا عطلتهم السنوية هذا الأسبوع، لذلك لم تكن صعوبة في إيجاد موقف لسيارتي هذا الصباح وقلت في نفسي:

- اليوم هدوء وسأنجز كل الأمور العالقة قبل أن آخذ عطلتي الأسبوع القادم.

عندما وقفت أمام المدخل الزجاجي في نهاية الدرج العريض هبت نسمة منعشة فزادت إحساسي بالتحفز للعمل وملأني هاجس عارم ببداية يوم جميل... لمحت الحارس يتكلم بالخلوي، كان مهموماً ولم يلتفت إليّ عندما صبّحت عليه، فلم أزعجه، دخلت البناية وأسرعت إلى المصعد متلذذاً بالبرودة الناجمة عن التكييف. بادرتني موظفة المقسم متسائلة:

- سمعت الأخبار؟!... تفجير حافلة قرب صفد!!. استدرت نحوها مذعوراً وقد مر في ذهني شريط من الصور لم يمض على التقاطها بعض ساعة من الزمن... كان سلطان يقف في محطة الباص فأشرت له بأنني مسافر إلى جهة الجنوب - إلى الناصرة - فأشار بيده إلى جهة الشمال، فهمت أنه يقصد مدينة صفد، حييته بإشارة من يدي وتابعت السفر.

في المحطة التالية قبل أن أتجه إلى الجنوب وقف بعض الجنود وعدد من الشباب والشابات يحملون حقائب وكتباً، رأيت وجوههم، كانوا يتضاحكون، وعندما عبرت أمامهم رأيت عيونهم وهم ينظرون إلي . . . ! تمتمت وأنا أسير نحو المقسم :

- لا يمكن . . . غير معقول !! واتكأت على الحاجز الخشبي قبالتها ورحت أتسمع للمذياع الصغير أمامها وكان لتوه قد بدأ بإعلان الخبر .

كان وجهها متقلصاً وعيناها تحدقان بي بلا روح وهي تتسمع ثم أشعلت سيجارة ومسحت عينيها وأنفها بظاهر يدها وعادت تحدق بوجوم . . . منذ عدة سنين أصيب ابنها البكر في حادث مماثل وهو ما زال جثة تتنفس ولا يعي شيئاً، فهجرت مدينتها وجاءت إلى الشمال . لقد حدثتني عن ذلك مرة التقيت بها في المستشفى فرافقتها إلى الغرفة التي يرقد فيها وندمت لما أصابني من إحباط إزاء مأساتها، وكلما كنت أسألها عن حاله كانت تبتسم وتقول :

- على حاله . . . كما رأيته ! ثم تبحلق فيَّ بحلقة جامدة لا حركة فيها، وتهز رأسها وتتابع عملها .

- ما رأيك؟ ماذا تقول؟ سألتْ أخيراً .

- واقع لا يطاق على كل حال !

لم يكن في ذهني أجهز من هذا الرد، وتذكرت الانفجار الذي حدث في مقصف الجامعة العبرية قبل أربعة أيام، كنت وقتها في ورشة عمل ودخل علينا من يخبرنا بالحادث فانتفض أحد الزملاء وخرج من الجلسة وبعد قليل عاد شاحباً مهموماً ودق جرس هاتفه الخلوي ورحنا نتنصت:

- . . . . . .

- حاولت لا يرد

- . . . . . .

- أخبرت سامي ورياض بأن يواصلا الاتصال به حتى يرد، وسيخبراني.

- . . . . . .

- لا تقلقي يا حرمة. . . استهدي بالله إنشاء الله لا يصيبه مكروه، قال إن امتحانه طويل، لا أعتقد أنه أنهاه قبل الانفجار.

- . . . . . .

- طبعاً. . . مع السلامة. اضطررنا أن نفض الجلسة لما أصابنا من توتر، وافترقنا مع عبارات الدعاء والطمأنة. وبعد ساعتين هاتفني الزميل ليخبرني أن ولده بخير. بحركة لا إرادية رحت أضغط

على أزرار الخلوي وأطمئن على الأولاد واحداً واحداً. قالت لي زوجتي بعد ذلك:

- يقولون إنه يوجد في الباص ركاب من قريتنا، وتعوذتْ بالله.

انتبهتُ إلى عاملة المقسم وهي تردد:

- تسعة قتلى وستة جروحهم خطيرة... جروحهم خطيرة!!!

وارتعشت ثم بكت.

أحسست بالحيرة ثم بإحباط شديد كذلك الذي تملكني يوم رافقتها إلى غرفة ولدها في المستشفى، لم أعرف ماذا أفعل، هل أقول شيئاً؟... هل أبقى صامتاً؟... أأترك المكان واذهب إلى غرفتي؟... فجأة قرعت أجراس كنيسة البشارة. رفعت إلي عينين تعبتين ثم استجابت لابتسامتي بابتسامة صفراء مثلها ولوت شفتيها، لويت شفتي مثلها وهززت رأسي ومضيت باتجاه المصعد.

عندما انطبق باب المصعد غمرني الصمت والبرودة وحدي. أحسست بحاجتي لأن أنفخ كل ما في رئتي من زفير وأن أتحسس برودة الجدار بكل موقع من جسدي الذي ألقيته عليه ومددت ذراعي وأذعنت للصعود.

سيرة

١

أَحبَّ الأرانب وانتظر كثيراً أمام جحورها ليرى مشهد خروجها بيضاء كالثلج متراكضة داخل الحوش وتأكل أوراق الخس.

بدت له الأرانب دائماً سعيدة هانئة، وكم حمله التماهي معها على محاكاتها، وكم غمره شعور بأنه واحد منها، بل كثيراً ما تمنى أن يصير أرنباً صغيراً أبيض كالثلج يدخل الجحر متى شاء ويخرج منه متى شاء ويأكل الخس.

٢

عندما كبر وأخذته الغربة نسي الأرانب والجحور وسحرته النجوم، صار يتمنى أن يكون هناك. تعلم مراسيم التجديف فحملته الطريق إلى الزحام، ولفه الضجيج وتعالقت خطاه مع المدلجين ومع السارين وأغواه المسير فأغرق فيه ونسي حكاية الأرانب.

٣

أمس تاقت نفسه للهواء وللشمس فأطل برأسه من فتحة الجحر الذي أوى إليه أخيراً ليتوارى عن الأصوات التي ظلت ألوانها تتداخل أبداً ولا ترعوي حتى ابتلاه العجز عن سماعها بالغباء، فلفح الدخان وجهه وأربكه الضجيج. نظر إلى فوق فرد لمعان الشمس بصره وتذكر أن النجوم لا تكون في الهاجرة. أحس لأول مرة منذ عهد بعيد بحنينه للأرانب ذات اللون الأبيض الناصع كالثلج والتي تأكل الخس.

المشاهدون

كانت الظباء تتراقص في المرعى الخصيب وكانت الفراشات الملونة تتهادى باطمئنان، والعصافير تتطاير وتتقافز بين الأعشاب الخضراء والشجيرات الصغيرة، أما الغزال الكبير فقد انفرد ونفش بدنه واستعد.

ما هي إلا لحظات حتى حمي صراع القرون. لم تأبه الظباء ولم تلتفت. إكتفت بإخراج أصوات خافتة عند كل اصطكاك عنيف. طال الكر والفر ثم لم يلبث الغزال الكبير أن وهنت قوته وبدأ يتراجع إلى الوراء، وصارت المسافة التي يرجعها كل مرة تكبر وتكبر. قبل أن ينهار استدار وراح يركض كما يركض الغزال مبتعداً عن الظباء ولم يلتفت إلى الوراء. أما الغريم فما أطال النظر، رجع واندس في القطيع وراح يقضم العشب بأناة كأن شيئا ما كان.

من بين المشاهدين ثلاثة فقط حكَوا: أحدُهم أُعجب بحزم الغريم وشمت بالمهزوم، الثاني حزن على المهزوم ولعن قلة الحياء، والثالث أعجبته حكمة الظباء، أما الباقون فهزوا رؤوسهم وما حكوا.

العواء

لم يفهم لماذا تعوي الذئاب بحرارة كلما التهمت فريستها وخُيِّل له أنها بشمت. أصر هذه المرة أن يرهن حزنه للريح ويرى. ثبت رجليه على الصخرة العالية واستعد... تصاعدت من الأعماق أصوات نهمة تغني، نظر فرأى عيونها تقدح شرراً وكلما أوغلت في دمه زاد عواؤها، ولم تكف عن البكاء بعد أن جردت عظامه وألقتها إلى القعر. حمل هزاله وعرضه في كل مكان فلم يتقدم منه مخلوق وعندما بدأ بالعواء لحقت به الذئاب.

هروب

عندما ترنحت الشمس في الأفق البعيد بدأت رمال الشاطئ تنكشف للعيان، وما كادت النسمات الباردة تلامسها حتى تعرت له تجعداتها التي خلّفتها أقدام البشر. أجال الطرف وأحس بالخواء لكنه أصر على الكتابة.

حك جبينه مراراً واسترخى.

انكمش واسترخى، وانقلب من جنب إلى جنب ثم كف عن الكتابة.

حاصره الصمت والفراغ وخاطبته الأمواج بلهجة أخرى. تلفت حوله مندهشاً فلم يرجّع المكان إلا همهمات البحر... أحس الوحشة تتسلل إلى نفسه وتغوّر بديهياته. احتضن حذاءه بكلتا يديه ودس قدميه وعاد مهرولاً إلى الضجيج.

في الحصار

لم تعد أصوات الانفجارات تهز فرائصي كما من قبل، ولكني مسحت أرض البيت الذي هر التراب من سقفه ومن الحيطان فشملتني طمأنينة ما، والتقت عيوني بعيون الأطفال حائرة مفزوعة كعيون جراء هرتنا في الموقد المهجور، لقد كفوا عن الصراخ وظلوا «يبرزقون» عند الخطر. كانت زوجتي عند الباب تشد صدغيها بكفيها وتصلي.

هرتنا ولدت منذ شهرين في الموقد المهجور وظلت تحمي أولادها هناك، لم يجرؤ أحد على الاقتراب منهم، لا الأولاد ولا الكلاب ولا القطط، ظلوا مع ذلك يبرزقون كلما أحسوا بالخطر إلى أن سرحوا خلفها في الساحة بأمان.

مسكينة زوجتي الآن... وأنا ما عساي أصنع من أجلها ومن أجل الأولاد!...

هذه الانفجارات لا تقاوم، وهرتنا وأولادها سرحوا إلى الشارع... لم يعد لهم مكان هنا. ترى هل كانت هرتنا تصلي لأجل أولادها كما تفعل زوجتي الآن؟

« مجنون »

من مخبئه تحت سلم البناية الشاهقة ردد عفاش ما سمعه أمس في السوق: «صاروخ واحد يكفي لشراء طحين سنة للمدينة»، وها هي الصواريخ تتهافت أفواجاً أفواجاً على المدينة! . الناس مجانين إذن . . . كل الوقت يقولون إنني المجنون . . . وأنا لا أفهم لماذا يقولون إنني مجنون ! الآن فهمت، أنهم مجانين، هم فعلاً! مجانين! مجانين! تأتيهم الصواريخ أفواجاً ويغضبون؟! وكل واحد بطحين سنة ويغضبون ويشتمون؟!

أول أمس لم يعطه أبو الهمات رغيفاً كعادته أمام مخبز الحي فحزن، وظل يومه جائعا ولم يدخل معدته طعام. وقبل أول أمس حين جاء بالرغيف إلى محسن الفوال كعادته ليضع له الفول ككل يوم انتهره فتراجع وأكل الرغيف حافاً بلا فول، ثم رقد في مخبئه حزيناً وظل يفكر إلى اليوم التالي.

في الصباح الباكر غادر الحي خائراً من الجوع، لقد قرر أن لا يكون من اليوم عالة على أحد، فها هي الصواريخ تتهافت على المدينة، وكل واحد بطحين سنة للجميع.

وصل عفاش إلى وسط الساحة الكبرى حيث تسقط الصواريخ

منذ بداية الحرب وانتظر . . . وعندما بدأ الناس يهرعون خائفين كالمجانين، واختلط صوت الدوي بأصوات الصفير والأزيز كان عفاش منتصباً في وسط الساحة مشمراً عن ساعديه ومادّاً ذراعيه للإمساك بالصاروخ الذي سيشبعه ويشبع المدينة كلها بالخبز سنة بكاملها.

محظوظ !

أفاق أخيرا من غيبوبته ، رأى وجه خاله يبتسم ووجوها أخرى لرجال ونساء يرتدون الأبيض ويرطنون ، تذكر أنه جريح في مستشفى المدينة ، وتذكر أنه لم ير إلا خاله منذ أن وعى .

حلم كثيراً من يومها وتألم كثيراً وفهم أنه بدون يدين وأنه مثخن بالجراح ، وأن صوت انفجار هز الدنيا فلم يعد يرى والديه من شدة الظلمة ، أفاق بعدها مضمداً وحوله خاله ورجال ونساء مهمومون بثياب بيضاء .

ابتسم لخاله وسأله كما في كل مرة عن أمه وأبيه وعن إخوته وجدته ، كانت حيرة خاله هذه المرة مرعبة ، فألح وانفجر بالبكاء وبدأ بالصراخ . احتضن الخال رأسه وهمس بصوت مخنوق :

- أنت محظوظ . . . نقلوك إلى هنا أمس . . . ستحصل على أفضل علاج . . . لقد انتهت الحرب . . . لاتقلق . . . سنعود قريباً .

أحس بوخزة في فخذه اليسرى وغلبه النعاس . خرجت من بطنه نخلة كبرت وكبرت . بدأت يداه تكبران . امتدتا عبر الضمادات نحو السماء ، وما أن اقتربت الصاعقة حتى أطبق عليها بهما وضغط وضغط فراحت تتفتت . ازداد لون السماء زرقة . كانت أمه تبتسم

وكان أبوه ينظر إليه بإعجاب. سمع جدته تزغرد. أما إخوته فقد استمروا بلعبهم تحت شجرة النخيل، ولم يستطع أن يقول لهم شيئاً لأن حلقه كان جافاً ولأن شفتيه لم تتحركا، وأحس بكل جوارحه بمدى لهفته للكلام.

استجابة

منذ البداية لم أنفر من مجالسته وإن تحفظت في نفسي من تهوره ومن تعليقاته الجريئة في كل الأمور حتى في تلك التي لا تليق بمن صار جدا لأحفاد. ربما إن مرجع ذلك براعته في السرد أو قدرته على اختيار الصور المعبرة أو ربما مرحه ومباشرته في كل الأحوال.

استفاض مرة فاندفعت أسأله أن يرعوي. قطع السرد والتفت إلي وضحك كمن يزيح عن خاطره غمة طارئة وقال:

- سمعت المثل الذي يقول: «طبع طبعه اللبن» ما العمل؟.. «وضعنا ذنب الكلب في القالب عشرين سنة...»!. صمت الحاضرون، وقبل أن تمحي آثار الضحكة على وجهه استدار وتابع سرده كأنّ شيئاً لم يكن. شعرت بحرج ما لم يطل واستجبت لضحك الضاحكين. عندما غادرَنا قلت:

- دمه خفيف على كل حال، وران الصمت قبل أن يشعل كل منا سيجارته ويبدأ الجدل الذي كنا بدأناه.

ترف الوقت

١

لم يعجبني الهرج، وكدت أهِمّ، ولكني «طَنَّشْت» وقلت لنفسي: السهرةُ ما زالت من أولها... «مَن حضر السوق يبعْ فيه» فتأنيتْ، وظللتُ أُلَهِّي الصبرَ وأُبحرُ في أشياء الغرفة - والعينُ تعينُ السمعَ إذا انْتُدِبَتْ عنه حين يضِلُّ النبرُ ويَغوَى الصوت.

٢

قال الراوي الواثق ما قال جُزافا وحكايا انبهرتْ من وقع تهافُتها حدقاتُ القوم، ولذّ لهمْ روغانُ السرد... وأصغَوا ملءَ فضولهمُ، والراوي يُعجِب في شد الخيط عن الخُرم، فتاهَ شجونُ القوم وتاه العزمُ وصاروا من أشياء الغرفة أُبحرُ فيهم وأُقلِّب آياتي... أتقرَّى الصمت النافر في وجع الصمت.

٣

لملمتُ نزيفي والعُريَ لعلَّ يفيقُ الجدّ . . . ، لعلَّ بصيصَ الحكمة يُنصفُ هذا الليلَ من الهذر فما انفلتتَ في الأوجُه رمشةُ عين تنبيَ بالصَحو ، ولا خَفَرَتْ ومضاتٌ توحي بالهِمَّةِ عن فَرطِ اللَّغْوِ وهذا السَّمْتِ .

٤

قالوا لي :

- قلْ ، قلتُ :

- لكمْ من طرف الخيط وخُرم الإبرة ما لكمُ ، لا حكيَ لديّ .

٥

كان الليل توغَّل في خاصرة الوقت ، وكَلَّ الصوتُ وراَنَ الصمتُ ، وحين مشيتُ شعرتُ بعَجز الأعين عن حُرمتها وبنزف الوقت .

الجدار

١

قال: ولا أحب أن يغضب مني أحدٌ، ولا أطيق وزْرَ من ينوء وزرُه به، ولن أكون وزر من لا يحمل حتى وزرَهُ. . . ! وإن أردتم فأنا أكون عبر الدائرةْ.

أو لو أردتم فأنا لا شيء يغريني. . . ، ولا في خلدي بوحُ الذي في شجني من وجع، أو سردُكم ترهقني المواقع المدورةْ.

ومجَّ آخر ما في سيجاره من شغفٍ، وقام من موقعه، شرَّعَ من قفاه بعض هزة تعلن عن طاَقتها في لعب الحكي، وخلَّى القومَ في حيرتهمْ! . هل فهموا قالتهُ؟ . . . ما فهموا؟ . . . ما الأمرُ ذا شأن هنا. ثم مضى، واختلط القول على ما لم يَبُحْهُ أحد، وشَرَّعوا فوضى الكلام قاب قوسين، إلى أنْ شحت الشمس كثيراً، وخوَى شوقُ المجاديف، ولم تخطر على الشاطئ رؤيا الآخرة.

٢

عرَّج في طريقه إلى «خُشَّتها»، وطرَق الباب، ولم ينتظر الردَّ، ورد الباب من خلفُ. . . وما فاجأها. تهلَّلَتْ، وأحضرت شاياً،

وألقت جُرْمها الرّهيفَ في جوارِهِ، وراح من نشوته يطير في الرحاب لا تحده المواقع المدورة ، يتوه في قراره، يغيب عن أوزاره ويستبيح باحةَ الأمانْ.

وخَبَّرته أنها مشتاقة . . . ! وأنها وحيدة، وأنها لما يدق بابَها يغمرها الأمانْ . . . ! وخبَّرَته أن محمود العلي لا يختشي، وأن شمس الدين قد بَحْلَقَ في «الخشة» أمس ومضى في حاله من بعد أن حرَّن كالثور وهز الحاجبين وتمادى بكلام أبردَ من خلقته . . . وأن «نص مصيص» ظل يتهادى مثل فحل «العرَّة» عند بابَها . . . ، وأنها تقرف من تَخَلُّع الرجال ! . . . لكنْ هي لا تَحْفَلُ، لا يعجبها من الرجال غيرهُ ! وداعبت جَبينه الغاضب ثم سكتت . . . وشربا الشاي ولم يدَّخرا الشوقَ رهيناً للحوارْ.

٣

أما الرجال، لم يطيقوا بعدَهُ البقاء في مجلسهم أكثرَ من هدر كلامٍ ليس منهُ، ورهانٍ وكلامٍ ورهانْ . . . !

حملوا قالاتِهم وانصرفوا كلٌ إلى باحتهِ، والليل كان قارساً، والريح كانت قرةً تطيح بالوجوه والعيونْ . . .

واعتكرت من همها السماء حتى لم تعد تلمح حتى أصبعاً مَدَدْتَهُ قُدَّامَ ناظريك حين أركنت لخفقها الظنون :

أحدهم راجع في العودة أمراً لم يقله للرجال قبل أن يعثر بالجدار، ثم إنه قد وصل الباحة من غير قرارْ، وآخرُ احتدَّ وشدَّ الخطو فَي عودته من غضبٍ فصدم الجدارْ.

وثالثٌ تفاقمت في ذهنه الأفكارْ

ورابع ظل يسب ملءَ شدقه

وخامس مرتبك

وسادس منهمك

وسابع محتارْ...!

الكل عاد محبطاً، والليل كان بارداً والريح كالأعصارْ، وكلما الواحدُ منهم مر «بالخشة» همهم... واستدارَ نحوها، فيصدم الجدارْ.

٤

ظل شمس الدين في الدار إلى أن وصل القوم إلى باحاتهم و«غطغطت»، فانسل في الليل وفي الريح الى الخشة، هز الباب ثم اندس في النور وكانت وحدَها... !لم ترتجف، بل ردت الباب وجاءته بكأس الشاي ثم انهمرت بجرمها الرهيف في جواره، وخبرته أنها مشتاقة، وأنها وحيدة وأنها لما يدق الباب يأتيها الأمانْ.

وخبرته أن محمود العلي لا يختشي، وأن «نص مصيص» ظل يتهادى عند بابها، وأنها تقرف من تخلع الرجالْ . . .

وخبرته أن سلطانَ أتاها غاضباً قبل قليل فسقته الشاي ثم فهمت منه بأن القوم يبغون لها السوء، وكانوا عنده في داره، وأنها ما صدّقتْ سلطانَ ولكن صرفته بعد أن شرب الشاي، فولى مثلما جاء لأن القلب مرهون لشمس الدين من بين جميع المدنفين العاشقينْ.

فاهتز شمس الدينْ!

واهتز شارباه مثل باشق . . . وهب في مجلسه وأغلظ اليمينَ أن سلطانَ دعيٌّ فاجر، وأنه لوحده الأمينْ.

٥

لم يطلع النهار حتى هز بابها الرجال كلُّهم، وشربوا الشاي . . وهزوا الشارب . . واهتزوا . . واغلظوا اليمين أنهم . . . ! وأنهم . . . ! وأن من أجل عينيها فلا حاجة أن يتسع الشارع أصلاً ها هنا . . .

فلتبق في مكانها الخشةُ وليبق الجدارُ إذ لَطالما كان الجدار ها هنا، وطالما وطالما تلمسوا الجدار.

الشحاد

١

- إني جائعْ . . . ! والبرد يُنَخِّل في العظمْ . . . !

هذا ما سمع القوم من الشحاذ فأعطَوْه ثياباً حتى ولى عنه البردْ . . . ثم أتته الخبازات بزيت وبخبز تعبق منه رائحة الطابون، ومضى .

مر شيوخ بالخبازات وقالوا :

- عافاكن الله، ومر الأولاد يبصون إلى أين يروح الشحاد، ومرت زوبعة غبار .

رغت النسوة :

- «يا ولدي» الفقر يهد الحَيلْ . حدجت واحدة منهن الدرب وقالت :

- الفقر يُذلْ . هتفت واحدة أخرى : - حتى «سبعَ الليل» . وتأوهتِ النسوة إشفاقا، ودعون الله له، وكَشَفْنَ عن الأعناق ورحن يكررن الدعوات لنعمته ويذبِّلن الأجفانْ .

وقفت واحدة شمطاء رمتها يوماً عاصفة في الحي وهزت يدها وهي تهيب بهن وصاحت:

لا يشحد لقمته إلا بَطَّال... أو محتالْ... وسباع الليل تطال اللقمة لو كانت خلف جبال الغالْ...

ومضت، زمت شفتيها ومضت والنسوة مشدوهات ما بين الخبز وبين الصمت وبين النار...

لكن مرت زوبعة غبار.

٢

في اليوم التالي مر الشحاذ على الخبازات ومر شيوخ قالوا:

- عافاكن الله. ومر الأولاد، ولم تنبسن بأي كلام عنه، ولكنّ الشمطاء مضت فوراً عنهن ومرت زوبعة غبار.

٣

في اليوم الثالث مر شيوخ بالخبازات ومر الأولاد ومرت زوبعة غبار.

نظر النسوة للشمطاء ولم تنبسن . . . نقلن الأنظار مراراً ما بين الخبز وبين الوجه المحمر وبين النار . هتفت إحداهنَّ : -مضى . . . لا يأتي اليوم . وقالت أخرى :

- صار لديه من الخبز كفاية أيام ، لكنْ إن يأت اليوم لنسألْه من أي بلاد يأتي ولأي مكان يأوي ، لن نعطيه خبزاً حتى نعرف عنه كل الأخبار .

٤

في اليوم الرابع جاء الشحاد وقدم جرة ماء من عين القرية للخبازات ولم يأخذ خبزاً . . . ومضى ، ومضى الأولاد يبصون إلى أين يروحُ ، وجاء شيوخ قالوا للنسوةِ :

- عافاكن الله .

شرب الكل من الماء وأطفأن الحر وكلن مديحاً للساقي . لكن مضت الشمطاء تزم الشفتين ، تدق برجليها الأرض وتهذي من وجع الأفكارِ . . . وهبت زوبعة غبار .

٥

في اليوم الخامس لم يأت الشحادُ، أتى الأولاد يصيحون ومر شيوخ وقفوا قدام الخبازات وقالوا:

- أنظرن...!

فبان لهن الأمر، وكانت أشداق شيوخ القرية ذاهلة. مر الشحاد يلف الشمطاء بمعطفه ويغذ السيرَ، ضحكن كثيراً حتى كادت أن تنطفئ النار...

ودنت زوبعة تهدر، لكن الشحاد مضى... وتغابى كل الناس وما حط على السرد غبار.

جمل مطرح جمل برك

تزوج وصار صاحب بيت ورزق بخلف وأوهنت الشيخوخة والده حتى مات، قالت له الوالدة: أنت مكانه، كذلك قال له المعارف والأقرباء على ما اعتاده الناس أيام العزاء.

اقتعد المضافة وزاره الشبان وسخروا من القهوة السادة فسقاهم الجعة، وعندما تجمعوا في شرفة البيت مساء قدم لهم شواء ووسكي. وقفت الوالدة ترحب وتقول في نفسها من الفرح: «جمل مطرح جمل برك».

وعندما تذمرت إحدى المعارف لأن ابنها منذ ترملت لا يأكل اللحم المشوي بدون عرق، يقول لها كل مرة:

- «زقحة عرق» لا تضر، تذكرت ما قالت لها كنتها باندهاش عن ذلك السائل العسلي الذي كانوا يشربونه مع الشواء فالتفتت إليها متفاخرة:

- يا ميمتي ابني يشرب مع اللحم المشوي الشاي، تصوري، مَن كان يصدق مثل هذا الكلام؟ شاي ولحم مشوي؟ ! تحسرت الجارة بخيبة وعلّقت:

- كله ولا العرق، ليشربوا بول الحمير لكن عرق لا . بعد برهة صمت تمتمت :

- الشاي، ما له الشاي؟ كل مخلوق ومذاقه .

خرافة

يُجْمِعُ العُرْفُ أن الإصرار والبراعة يغلبان المعجزة: يحكى أنه على قارَعة الطريق بين الصحراء والماء تذكّر الفارس حكاية الحية آكلة الفرسان ذات الأربعين رأساً. أحس برعشة تسري في بدنه وكان العطش قد أخذ منه كل مأخذ. ألقى نظرة على الأفق الممتد وراءه فخامره العطش وكبر عليه الأمر، ثم على الذي أمامه فامتلأت عيناه ببريق عجيب. تحسس سلاحه ولكز حصانه فهب كالريح.

زعموا أن الحية تسكن النبع وتستأثر بالخلاء فإذا تطفل فارس أرسلت رؤوسها الأربعين تلغ من دمه، وإذا عاجل الفارس الرؤوس بالسيف نما مكان كل واحد أربعون.

يحكى أن عجوزاً عمياء لطول بكائها على فارسها ظلت تعترض الفرسان على أطراف القفر وتحكي لهم حكايتها وتحذرهم من النبع.

قبل العصر وصل إلى النبع، ألقى نظرة متوجسة من بعيد فتراءت له الرؤوس الأربعون تتراقص بشماتة، فاقشعر واهتز، لكنه بإصرار غريب سرعان ما رهن كلَّ حواسه ومهاراته للمشهد وبحذر بارع عالج الرؤوس بالسيف فتكاثرت، فتراجع. أعاد الكرة أكثر من مرة وظلت الرؤوس تتكاثر وتستشيط... استشاط غيظاً وازداد بريق

عينيه التماعاً ولم ينظر للوراء، ترجل وتسلق التل وراح يطمر النبع بكل ما أوتى من فروسية وغيظ.

بعد قليل وفي غمرة اندهاشه رأى فيما يرى الحالم الحية التي لم يدَّعِ أحد أنه رآها من قبل تتملص من الردم وتنسل برأس واحد ووحيد إلى جحر قريب، عندها أحس بعطش شديد.

يقولون إن مهارة يد الفارس ولمعان شفرة سيفه كما بساط متطاير من البريق قد بهرا الحية فشغلت عن رؤوسها المتطايرة أزواجاً وثلاث ورباع... فلم تتكاثر حتى سقطت في النبع قبل أن يتسلّق التل. وهنالك روايات عديدة لما حدث بالفعل لكن أحدا لم يهتد إلى النبع حتى اليوم.

خبر حنين

قد يكون الكلام وجها آخر للحقيقة التي تغيب عن المعارف مجاراة لنظام السرد: عاد حنين الفارس الذي لا يُشَقّ له غبار يجر ناقته المحملة بتجارة رابحة، وفي الطريق رأى - على ما قص حنين على قومه - فردة خف جديدة، ظن أنها سقطت من مُتاجر مثله سبقه على الطريق، فحزن له وتابع المسير. بعد ساعة رأى الفردة الأخرى فترجل وضمها إلى بضاعته ثم ربط ناقته المحملة وعاد ليحضر الفردة الأولى. عندما عاد بها لم يجد الناقة، لقد اختفت بحمولتها وبالفردة الثانية. هكذا رجع من تجارته بفردة خف واحدة وقص خبره على الناس وادعى أنه لشدة حرصه وسوء آلتهِ لعله لم يثبِّت رباط الناقة كما يجب، فضحكوا من غبائه وذهبت حكايته فيهم كالنار في الهشيم.

لم تقتنع زوجة حنين بما قص إذ لم تعهد فيه غباء، وضايقها ضحك الناس واستغباؤهم لزوجها. لما رأى إلحاح عينيها بالسؤال قال:

- غباء حنين في الناس يا امرأة أسلم من سوء الظن وفي الحالين لن يرجع ما فقدناه.

صمت الاثنان طويلاً وحين لمح في عينيها بوادر سؤال جديد قص

عليها خبر الفارس والجنية التي اعترضت طريقه بهيئة امرأة مسكينة مولولة، فأخذته الحميَّةُ وأردفها وراءه فراحت تكيل له الشكر وتدعو له بالثواب. بعد قليل قالت له:

- لولا حصانك لما حملتني فالدرب طويل. أجاب:

- ربما، وصمت. وبعد برهة قالت:

- لله درك فقد أركبتني حصاناً معلوفاً ورخي الركض. قال:

- هو كذلك. صمتت ردحاً من الزمن ثم قالت:

- إننا نركب حصاناً لله دره، ليس مثله في الأحصنة. قال:

- ليس لي علم على كل حال. ولكزه فاندفع فتشبثت بكتفيه وأردفت:

- كم أُشفق على الحصان من ركوبنا إياه معاً. وعندما مالت الطريق إلى الانحدار قالت بتوسل:

- دعني أترجل وأريح حصاننا فأنا خائفة عليه من الإعياء. قبل أن يلتفت إلى مقولتها كانت يدها قد امتدت إلى حزام السرج فقطعته وباليد الأخرى رمت الفارس واندفعت كالعاصفة بالحصان وهي تصيح:

- لله در حصاني إنه يسابق الريح.

حملقت الزوجة في وجه حنين مندهشة ثم ألحت عليه أن يروي لها الخبر الصريح.

أمثولة

أخيرا جاء دور الراعي فدبَّ يتكئ على عصاه وجلس على مقعد الاعتراف وقد فحت من أثوابه البالية رائحة العرق والبرية والمعز. أدار بصره بين الناس وراح يروي حكايته في ذلك اليوم. . .

علا الضجيج في المعبد ولم يدر الراعي الفقير لماذا يضحكون. ظل الكاهن مشدوهاً حين رأى أن الهيكل امتلأ نوراً دون أن يشعل الشموع.

مر بائع العرق سوس فتحلق الخارجون من المعبد حوله ليبلوا ظمأهم. أما الراعي الفقير فظل يحمل ظمأه حتى وصل الغدير، وأما الكاهن فقد ظل مشدوهاً إلى أن حزم أمره.

بيضة الرخ

حلق الرخ فغطى لمعان الشمس . حرك جناحيه مراراً فهبت الرياح الراكدة وانتشر الغبار في كل مكان . أسرعت أمي تلم غسيلها عن الحبال وفعلت الجارات مثلها . عاد الرجال مسرعين إلى بيوتهم للاطمئنان ونفضوا عن لحاهم كثرة الغبار وفتح العرافون كتبهم القديمة .

عندما زعق الرخ في أعالي السماء سقطت من مؤخرته بيضة هائلة شديدة اللمعان ، فارتجفت الأرض وذعر الخلق ، أما العرافون فقد تفاءلوا ببيضة الرخ رغم كل شيء وأعلنوا أن علمهم ينبئ بالخير العميم . ولما عاد الجائعون المجهدون بفؤوسهم ومواعينهم في المرة الأخيرة إلى البيضة كما كان أوعز العرافون يومها رأوا الجدار الأملس الصلب ينشق عن رأس رخ صغير . ذعر الناس مرة أخرى وذهل العرافون .

رجوع السندباد

١

لما أيقن السندباد أن العراة الذين يرقصون حول النار على الشاطئ القريب يشوون أسراهم ويهزجون أصابه هلع وأيقن أي مصير آل إليه في تلك الجزيرة النائية وحمد الله أنه لم يلتق ببشر بعد رغم أنه يبحث عن بشر منذ وقوعه عليها.

لبد مكانه على الشجرة المشرفة، ولما انتهى الاحتفال وابتعد المحتفلون بقواربهم تأبط بندقيته وحمل ما استخلصه من ذخيرة من سفينته الغارقة وتسلق المنحدر وقد قر قراره أن لا تدوس قدماه رمل الشاطئ حتى يتدبر أمره.

٢

سرعان ما تعلم أن مثل هذه الاحتفالات لا تتم إلا في الليالي المقمرة فجعل تلك الليالي مسلاته وما عداها لتحصين مأواه بالصخور والجذوع الغليظة في أعلى الجرف وللصيد. صار يحن لمرأى النار يحيط بها الهازجون وهم يرقصون، وصار يحزن إذا مرت الليالي المقمرة ولم يظهر مشهد الاحتفال.

٣

في أحد الأصائل بصر على الصخرة النائية أرنبين يتناجيان فتسرق حتى اقترب، صوّب وأطلق النار فرمى أحدهما وجاء به راكضاً فرِحاً إلى مأواه. بعد أن سلخه وأعده للشواء ألقاه على كومة الحطب ورَاح يُعد النار كما يفعل عراة الشاطئ: فرك عودين يابسين فخرج منهما الدَخان فقربهما من العشب اليابس تحت كومة العيدان فالتهب وارتفع اللهب وأضاء المكان، لم تكن الليلة مقمرة فغمرته نشوة من الفرح والانعتاق وراح يدور حول النار يرقص ويقفز ويتمايل ويصرخ حتى نضج الأرنب وأكله وأحرق عظامه كما يفعل العراة، ولما خمدت النار وخارت قواه أخلد للنوم.

٤

في اليوم التالي عند الأصيل رأى قارباً يقترب من الشاطئ فاستأنس ولبد يرقبه من مخبئه فوق الجرف. تعجب لأن الليلة لن تكون مقمرة. عندما حل الظلام لم تشتعل النار على الشاطئ ولم ترتفع الأهازيج والصراخ. انتظر فلم يكن إلا الظلام والصمت.

غمره إحساس غريب يحثه على المغامرة فحمل بندقيته وتسلل إلى تحت. سمع من بعيد أصواتاً خافتة وضحكات آدمية. اقترب

مصوباً بحذر فرأى عاشقين من العراة يفترشان الرمل ويتهامسان، أحس براحة ما، أقترب أكثر، هيأ بندقيته وراح يتأملهما فتدفق فيه الشوق إلى أيام مضت. أدار بصره. لمح القارب فعاد وصوب، فارتعش. هز رأسه بعنف وعض شفته العليا وصوب طويلاً لكنه جذب بندقيته ورجع للوراء وقرفص خلف جذع شجرة وأطلق طلقتين مدويتين في الهواء اهتز لهما صمت العتمة فتصارخت الطيور هاربة من المكان. ارتعب العاشقان وراحا يعدوان في الظلام وانسل هو نحو الشاطئ القريب.

٥

عندما لاح ضوء السحر كان قد ابتعد بالقارب وصار يخامره إحساس بالخلاص.

قايين وهابيل

١

جلس الأخوان بعد عناء يومهما في ظل شجرة التوت يستريحان. قدم هابيل لأخيه قصعة لبن طازج فشرب حتى ارتوى وقدم قايين لأخيه حفنة توت فأكل ثم استلقيا وساح كل منهما في رحاب ذاته.

٢

إتكأ قايين على كوعه وأسند رأسه بكفه وسأل أخاه هابيل إن كان يخيل إليه كما يحدث له بما يشبه الحلم أنه كان يوماً ما في دنيا غير هذه الدنيا. انتفض هابيل، جلس وحدق في أخيه:

- سبقتني بالسؤال، أكثر من مرة ترددت أن أخبرك أني أحس بأني عشت في غير هذا المكان، وللتو كنت أرى نفسي جالساً على العرش آمر بقطع رأس أحد الأعيان وقد دخل به قائد الجند مكبلاً يصيح ويقسم ببراءته وولائه. لشد ما يزعجني هذا المشهد يا أخي، لكنه يلازمني كلما خلوت إلى نفسي وراء الشياه. لقد جروه من أمامي وهو يولول كما نجر الشاة للذبح.

- طمأنتني، خفت أني أهلوس، ماذا أقول لك؟ يخيل لي أني تاجر ذو ثراء نازعت حاكم المدينة في جارية فاقتنيتها بمالي فعاداني ووشى بي للملك بخيانة لا أعرفها فأمر الملك بقطع رأسي. إن هذا المشهد لطالما يرعبني وهو لا يفارقني. صمت هابيل واستلقى من جديد أما قايين فظل متكئا كما كان.

٣

قطع قايين الصمت الذي ران ردحاً من الزمن وسأل بصوت متهدج:

- يحيرني ما فعله والدنا بنا... لماذا جعل العمل في الأرض من نصيبي أنا وجعل الرعي بالشياه نصيبك...؟ لم يجب هابيل وتوجس في لهجة أخيه ما كان يلمحه في نظراته منذ اقتسما العمل. أضاف قايين:

- العمل في الأرض أصعب من الرعي

- لكنني أمهر منك في سياسة الشياه وحمايتها.

- كأنك تتكلم بلسان الملك!

- وتتكلم أنت بلسان التاجر!. هب قايين واقفا وسأل بغضب:

- إلى أين ذهبت!؟

- لم أذهب لأي مكان. العمل في الأرض مجدٍ على كل حال.

- تنكر أن الرعي أسهل من الفلح وأجدى؟
- لا تنكر حكمة الأب يا أخي! ما هذا الجحود؟

ثارت ثائرة قايين فهوى بالفأس على رأس أخيه فقتله ولما تيقن مما فعل ندم وبكى ثم دفنه وتاه في البرية.

النار التي لا تطفئها العاصفة

١

تخلف الفارس عن الغزو ليبقى قريباً من خطيبته التي لم يعد أبوها من الحرب. علم الكاهن الكبير بالحكاية فاستحضرهما إلى الهيكل، نظر إلى الفتاة فأُغْرم بها حتى غاب صوابه وأفتى بغباء قلبيهما، ولما عصي عليه مراده أمر بمحاسبة الفارس الجبان. لما اختفى الفارس عن العيون صار يراود الفتاة عن نفسها وأمر بحجزها فاحتملت المهانة بصبر، وعندما ذاع الخبر تململ صغار الكهنة فشردهم عن القصر وأصبح له عيون وزبانية كثيرون وصار له سلطان.

٢

لم يتمكن من القبض على الفارس ولم يطعه قلب الفتاة فاستحضر آلهة الشر وحالفهم فأفتوا له بحماس شديد:

- يصير الفارس ذئباً في الليل وتصير الفتاة صقراً في النهار فلا يلتقيان بآدميتهما ويتعذبان بحبهما إلى الأبد ما كان نهار وما كان ليل.

وحذرته آلهة الشر من النار التي لا تطفئها العاصفة .

وضع الكاهن السحر في صندوق من الحديد وخبأه في خزانة سرية وامتلأ قلبه غيظا .

صار العاشقان يلتقيان في الغابة فارساً وصقراً في النهار وذئباً وحسناء في الليل يلازم الصقر ذراع فارسه نهاراً ويحرس الذئب حسناءه ليلاً . . . ويتعذبان .

٣

جاءت العيون للكاهن الكبير بخبر العاشقين فما شفى غليله واشتدت عليه الغيرة رغم ما حل بهما . جفاه النوم في الليالي وبان عليه القلق والاضطراب في رعيته . وفي سورة جنون عارم أمر عريف الجند بقتل الفارس وصرخ به :

- لتبق الفتاة وحيدة على حالها . . . لتتعذب إلى الأبد . . . ، وحذره من إيذائها مهما كان .

صار الجند يلاحقون الفارس نهاراً فيسرع الصقر بتحذيره من وجهتهم فيختفي عن عيونهم ويوقع بهم المرة بعد المرة، وصاروا يصطادون الذئاب ليلاً بالمصائد فلا يقع فيها لملازمة الفتاة .

٤

في الليالي فكرت الفتاة في حالهما وبكت وحدها وفي النهار فكر الفارس في بكائها ولم يستطع أن يسألها لأنها كانت تتحول إلى صقر، وفي أحد الأيام هبت العاصفة واشتد المطر والبرد، ولما قارب النهار على نهايته فطن أنه سيتحول إلى ذئب وستعود هي إلى آدميتها فخاف عليها من العاصفة وبحماس ليس له نظير تلفت حوله وتطلع إلى الجبل فرأى بناء مهدما، طار إليه واندس تحت أحد سقوفه المتهاوية وأشعل ناراً ثم راح يتحول إلى ذئب وراح الصقر يتحول إلى ملاك وديع.

٥

أطل ناسك الجبل من حجرته فرأى في ضوء النار الخابية حسناء حزينة تداعب بأصابعها الصغيرة وجه الذئب الرابض مستسلماً إلى جوارها بأمان. كاد لا يصدق عينيه، أنعم النظر فلمح دموعاً تتساقط من عينيها الجميلتين. بأسرع من لمح البصر تذكر قصة الفارس والفتاة اليتيمة التي راودها الكاهن الكبير عن نفسها وتذكر السحر الذي أفتى له به آلهة الشر. لكي يتأكد من الأمر عاد إلى حجرته مسرعاً، فتح الصندوق الذي سرقه من خزانة الكاهن الكبير قبل أن يهرب للبرية وراح يتأكد مما جاء في أوراق ذلك السحر المخبوءة فيه. بعد

قليل انفرجت أساريره وهرول للخارج حاملاً الأوراق بفرح لا يوصف وراح يزيد النار حطباً ويصب عليها الزيت ويحرق السحر إلى أن طلع الصباح وهدأت العاصفة وتحول الذئب إلى فارس ولم تتحول الحسناء إلى صقر.

٦

يحكى أنه كلما صب الناسك زيتاً على النار كانت العاصفة تحمل حفنة من اللهب وتدسها في قلب الكاهن الكبير فيصرخ من الألم، وظل يصرخ ويصرخ بين زبانيته الذين ما اقتنعوا يوماً بسلامة عقله إلى أن احترقت أحشاؤه وتصاعد منه دخان منتن كريه.

أما العاشقان فقد عاد بهما الناسك إلى المدينة واستقبلهم الناس بفرح عظيم.

يسوع يبحث عن حواريه

كان الحماس يتصبب لهباً في عيون الجموع وهم يرجمون الخاطئة.

ذهل يسوع وخاطبهم:

- الحق أقول لكم، من لم يخطئ فليرمها بحجر.

كما يكون السحر تراخت الأذرع وتداعى اللهيب وتنفست عنها الجموع بلا ضجيج. تقدم يسوع ولف الخاطئة بعباءته...، يقال ستر عريها، وصارت من الحواريين.

بعد ألفي عام تراءى ليسوع أنه ينظر إلى الجموع: وقف على الجبل وألقى على القاع عينين لاهفتين فَعَلا الضجيج إليه. فض يسوع حزام عباءته وصاح:

- الحق أقول لكم... وهم بالخطاب. تعالى اللهب والغبار إلى القمة فتذكر صليبه ولفته العاصفة فتمتم:

- لم تأت ساعتي بعد؟!.

يقولون:

- إنه خلّى صليبه وعاد إلى السماء على جناح من اللهب، ويقال:

- بل هو ما زال يذب الجموع ويبحث عن حواريه، ويقال أيضاً:

- لقد شُبِّهَ لهم... لعله أبداً لم يطأ الأرض منذ صعد إلى السماء.

الفهرس

المحتويات	صفحة
أخيرا جاء مسعود	٥
عجوزان في القطار	١٢
زغروطة	١٥
كلام للبيع	١٩
الحاشية	٢٢
أصدق الدموع	٢٦
عندما تنبح الكلاب	٣١
قريد العش	٣٥
لماذا يضحكان؟	٤٠
شجون الزمن الضائع	٤٧
تجاعيد	٥٢
في المصعد	٥٥
سيرة	٥٩
المشاهدون	٦١
العواء	٦٢
هروب	٦٣
في الحصار	٦٤

المحتويات صفحة

مجنون ٦٥
محظوظ ٦٧
استجابة ٦٩
ترف الوقت ٧٠
الجدار ٧٢
الشحاد ٧٦
جمل مطرح جمل برك ٨٠
خرافة ٨٢
خبر حنين ٨٤
أمثولة ٨٦
بيضة الرخ ٨٧
رجوع السندباد ٨٨
قايين وهابيل ٩١
النار التي لا تطفئها العاصفة ٩٤
يسوع يبحث عن حواريه ٩٨

إصدار دار الهدى للطباعة والنشر كريم ٢٠٠٦
عزالدين عنابة كفر فرع
هاتف ٠٤-٦٣٥٤٢٢٢ ٦٣٥٤١١٤ - ٠٤ - موبايل
منشأ